أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
AL-Waei Al-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

التراث العربي

الأستاذ عبد السلام محمد هارون
ت (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)
رحمه الله

الإصدار الثمانون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

التراث العربي

الأستاذ عبد السلام محمد هارون
ت (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)
رحمه الله

الإصدار الثمانون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الوعي الإسلامي
Al-Waei Al-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة الكويت - في مطلع كل شهر عربي

الطبعة الأولى
الإصدار الثمانون
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

العنوان:
ص.ب ٢٣٦٦٧
الصفاة ١٣٠٩٧ الكويت
هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني:
info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني:
www.alwaei.gov.kw

الإشراف العام:
رئيس التحرير
فيصل يوسف أحمد العلي

تصدير

بقلم: رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلّمه البيان، ووهب له العقل؛ ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأرسل رسوله بالهدى والبلاغ والتّبيان، وقيَّض من عباده مَنْ نظم العلم بأفصح لسان، اللهم صلِّ وسلّم على عبدك ورسولك محمّد، وعلى آله وأصحابه ومَنْ تبعهم بإحسان.

ثم أما بعد:

يُعتبر التراث العربي واحداً من كنوز الحضارات الإنسانية الشامخة؛ فهو تراث عريق ممتد الجذور، وحين بزغ فجر الإسلام على الجزيرة العربية؛ نمَّاه وكشفه للعالم، ولما امتدَّت فتوحاته، ودخلت فيه أمم كثيرة ذات حضارات قديمة، وعندما انخرطت هذه الأمم بالحضارة العربية الإسلامية، وهجرت لسانها القديم، واتخذت اللسان العربي أداة فكر وبيان؛ أنتج لنا هذا التزاوج أمة جمعت بين صنوف شتى من الثقافات والعلوم التي أثَّرت التراث الإنساني، وجاءت هذه العلوم مسطرة على لفائف ورق البَرْدي وغيرها، ثمَّ تطوَّر العمل بها حتى باتت تُعرف بـ «المخطوطات» التي صارت ـ فيما بعد ـ علماً قائماً من أنفس العلوم يُدْرَس ويُدَرَّس.

وقد شهدت العقود الأخيرة اهتماماً متزايداً بهذه الكنوز الحضارية من الدَّارسين العرب والمسلمين، ومؤرخي العلم الغربيين على حد سواء، فبذلوا لأجلها الجهود المضنية، التي تمثَّلت في عملية رصد المخطوطات وجمعها، وفهرستها وترميمها وحفظها، ثم في تحقيق نصوصها، ومعالجة نماذجها، نسخاً وقراءة وحلّاً لمشكلاتها، واستجلاءً لغوامضها، ثم في تناولها بالدراسة والتحليل؛ بحثاً عما يمكن أن تتضمنه من معلومات قد تفيد البشرية جمعاء.

هذا، وقد تطرق لعرض هذه الفنون في التعامل مع التراث تفصيلاً شيخ المحققين الأستاذ الجليل عبد السلام محمد هارون في كتابه النفيس:

«التراث العربي»

الذي تضعه **«مجلة الوعي الإسلامي»** بين يدي قرَّائها الكرام، ليكون ضمن إصداراتها العلمية والثقافية القيمة، وذلك من خلال مشروعها الثقافي والفكري المتكامل، والذي جمعت من خلاله الكتب النافعة والإصدارات الثقافية والعلمية.

وتم العمل على إخراج هذا الكتاب من خلال:

جمع مادته العلمية، وإعادة صفها وإخراجها وترتيبها، وضبط مشكلها، ومطابقة مادتها العلمية بأصولها، ثم عمل فهرسة لموضوعاتها، ومقدمة تتناسب مع محتواها؛ ليخرج الكتاب للقارئ الكريم بحلَّة جديدة تتناسب مع قيمته العلمية.

وكان الدافع للعناية بهذا الكتاب وإعادة إخراجه هو:

خدمة التراث الإسلامي والعربي من خلال إثراء المدخل التاريخيِّ في تدريس التراث، وتنمية الحسِّ النقدي، والوقوف على طبيعة التطوُّر العِلمي ومنهجية البحث، وتوظيفُ نصوص التراث في أغراض التأصيل لمناهج البحث العلميِّ، ونظريّاته المعاصرة.

ومجلة «**الوعي الإسلاميّ**» إذ تقدّم هذا الإصدار، فإنها تتوجه بخالص الشكر والتقدير لفضيلة الأستاذ نبيل عبد السلام هارون ـ ابن المؤلف ـ حفظه الله، على إجازته بطباعة هذا الكتاب القيّم، والشكر موصول لمن ساهم وأعان على إصداره، سائلة الله ﷻ أن يجعل فيه النفع والفائدة للجميع.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي



ترجمة المؤلف
عبد السَّلام محمد هارون[1]
(ت: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م)
رحمه الله تعالى

اسمه ومولده ونشأته:

هو شيخ المحققين، الأديب الباحث، واللغوي الأستاذ عبد السلام محمد هارون عبد الرزاق.

---

(١) انظر ترجمته في: كتاب: «الإعلام بمن زار الكويت من الأعلام» (ص٨٣) للدكتور وليد عبد الله المنيّس، وهو من إصدارات مجلة الوعي الإسلامي.
وفي «تكملة معجم المؤلفين»، لمحمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، (ص٢٩٢)، وفي «مجلة مجمع اللغة العربية الأردني»، في العدد (٣٤).
وفي «جريدة المدينة» وهي ترجمة مفصلة بقلم محمود محمد الطناحي، استقصى فيها كل أعماله، ونشرها في ثلاثة أعداد من ملحق التراث في شهري ربيع الآخر وجمادى الأولى سنة (١٤١٠هـ).
وفي «المجلة العربية للعلوم الإسلامية» بقلم عبد العال سالم مكرم، نشرها في عدد ربيع الأول سنة (١٩٨٨م).
وفي الكتاب الذي أصدرته جامعة الكويت عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (١٤١٠هـ) بعنوان «الأستاذ عبد السلام هارون معلماً ومؤلفاً ومحققاً».

ولد الأستاذ عبد السلام في (٢٥) من ذي الحجة عام (١٣٢٦هـ)، الموافق (١٨) يناير (١٩٠٩م)، في مدينة الإسكندرية بجمهورية مصر العربية.

ونشأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كنف أبيه الذي اعتنى بتربيته وتعليمه؛ فحفظ القرآن الكريم، وتعلَّم مبادئ القراءة والكتابة، والتحق بالأزهر سنة (١٩٢١م)؛ حيث درس العلوم الدينية والعربية، ثم التحق ـ بما كان يُعرف ـ بـ (تجهيزية) دار العلوم في سنة (١٩٢٤م)، وحصل منها على شهادة البكالوريا سنة (١٩٢٨م)، ثم أتم دراسته بدار العلوم العليا، وتخرج فيها سنة (١٩٤٥م).

ومما ساعد على بلورة هذه الشخصية النبيلة؛ نشأتها في ظل أسرة علم وأدب ودين.

فجده لأبيه هو الشيخ الأديب هارون بن عبد الرازق، عضو جماعة كبار العلماء.

وأبوه الشيخ محمد بن هارون، كان يتولى عند وفاته منصب رئيس التفتيش الشرعي في وزارة العدل.

وعمه هو الشيخ أحمد بن هارون، الذي يرجع إليه الفضل ـ بعد فضل الله ـ في إصلاح المحاكم الشرعية ووضع لوائحها.

وأما جده لأمه فهو الشيخ محمود بن رضوان الجزيري، عضو المحكمة العليا.

أعماله العلمية ووظائفه الإدارية:

بعد تخرج الأستاذ عبد السلام رحمه الله؛ شغل العديد من المراكز والمناصب الإدارية والعلمية، ومنها:

١ ـ عمل مدرساً للمرحلة الابتدائية.

٢ ـ عُيّن مدرساً في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية سنة (١٩٤٥م)، وجاءت هذه النقلة النوعية في حياته بعد أن ذاعت شهرته في تحقيق التراث.

٣ ـ عُيّن أستاذاً مساعداً بكلية دار العلوم في سنة (١٩٥٠م).

٤ ـ عُيّن أستاذاً ورئيساً لقسم النحو بكلية دار العلوم سنة (١٩٥٩م).

٥ ـ اختير عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة (١٩٦٩م).

هذا، ومن أعمال الشيخ الجليلة ـ التي ما زال يذكرها الكويتيون ـ؛ اشتراكه ومساهمته في النشأة العلمية لجامعة الكويت في سنة (١٩٦٦م)، حيث تولى رحمه الله رئاسة قسم اللغة العربية وقسم الدراسات العليا حتى سنة (١٩٧٥م)، ولعل من أبرز تلامذته من الكويت: الدكتور يعقوب يوسف الغنيم، الذي تتلمذ على يديه أثناء دراسته في كلية دار العلوم في مصر[١].

---

(١) انظر: «الإعلام بمن زار الكويت من الأعلام» (ص٨٥).

نشاطه العلمي:

بدأ عبد السلام هارون نشاطه العلمي منذ وقت مبكر، فأنجز العديد من الأعمال منها:

* حقق ـ وهو في السادسة عشرة من عمره ـ كتاب «متن أبي شجاع» ضبطاً، وتصحيحاً، ومراجعة، وكان ذلك سنة (١٩٢٥م).

* حقق الجزء الأول من كتاب «خزانة الأدب» للبغدادي سنة (١٩٢٧م)، ثم أكمل أربعة أجزاء من الخزانة وهو طالب بدار العلوم.

كانت هذه البدايات تشير إلى الاتجاه الذي سيسلكه هذا الطالب النبيه، وتظهر تعلقه بنشر التراث، وصبره وجلده على تحمل مشاق المراجعة والتحقيق، وبعد تخرجه في دار العلوم اتجه إلى النشر المنظم، فلا تكاد تخلو سنة من كتاب جديد يحققه، أو دراسة ينشرها.

ولنبوغه في هذا الفن؛ اختاره الدكتور طه حسين سنة (١٩٤٣م) ليكون عضواً بلجنة «إحياء تراث أبي العلاء المعري» مع الأساتذة: مصطفى السقا، وعبد الرحيم محمود، وإبراهيم الإبياري، وحامد عبد المجيد، وقد أخرجت هذه اللجنة في أول عهدها مجلداً ضخماً بعنوان: «تعريف القدماء بأبي العلاء»، أعقبته بخمسة مجلدات من شروح ديوان «سقط الزند».

وتدور آثاره العلمية في التحقيق حول العناية بنشر كتب الجاحظ، وإخراج المعاجم اللغوية، والكتب النحوية، وكتب الأدب، والمختارات الشعرية.

أما كتب الجاحظ، فقد عني بها عبد السلام هارون عناية فائقة، فأخرج:

١ ـ كتاب «الحيوان» في ثمانية مجلدات، ونال عنه جائزة مجمع اللغة العربية سنة (١٩٥٠م).

٢ ـ كتاب «البيان والتبيين» في أربعة أجزاء.

٣ ـ كتاب «البرصان والعرجان والعميان والحولان».

٤ ـ «رسائل الجاحظ» في أربعة أجزاء... وغيرها.

وأخرج العديد من **المعاجم اللغوية**، منها:

١ ـ معجم «مقاييس اللغة» لابن فارس، في ستة أجزاء.

٢ ـ «صحاح العربية» للجوهري، اشترك مع أحمد عبد الغفور العطّار في تحقيقه؛ ليخرج في ستة مجلدات.

٣ ـ «تهذيب الصحاح» للزنجاني في ثلاثة مجلدات.

٤ ـ «تهذيب اللغة» للأزهري، حيث حقق جزأين منه.

كما حقق من **كتب النحو واللغة**:

١ ـ «كتاب سيبويه» في خمسة أجزاء.

٢ ـ «خزانة الأدب» للبغدادي في ثلاثة عشر مجلداً.

٣ ـ «مجالس ثعلب» في جزأين.

٤ ـ «أمالي الزجاجي».

٥ ـ «مجالس العلماء» للزجاجي أيضاً.

٦ ـ «الاشتقاق» لابن دريد.

وحقق كثيراً من كتب **الأدب والمختارات الشعرية**، ومنها:

١ ـ «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي، مع الأستاذ أحمد أمين.

٢ ـ «شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري.

٣ ـ المجلد الخامس عشر من كتاب «الأغاني» لأبي فرج الأصبهاني.

٤ ـ «الأصمعيات» للأصمعي، بالاشتراك مع الأستاذ أحمد شاكر.

وحقق من كتب التاريخ:

١ ـ «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم.

٢ ـ «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم.

أما عن مؤلَّفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ فله العديد من المؤلفات والكتب القيمة، ونذكر منها:

١ ـ «تحقيق النصوص ونشرها» أَلَّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (١٩٤٥م)، وكان لهذا الكتاب مكانة خاصة عند الباحثين والمحققين وطلاب العلم؛ كونه أول كتاب عربي في هذا الفن، يوضح مناهج هذا الفن ويعالج مشكلاته.

٢ ـ «الأساليب الإنشائية في النحو العربي».

٣ ـ «الميسر والأزلام».

٤ ـ «التراث العربي»، وهو هذا الكتاب الذي يلامس يد القارئ الكريم.

٥ ـ «قواعد الإملاء».

٦ ـ «كناشة النوادر».

٧ ـ «معجم شواهد العربية».

٨ ـ «معجم مقيدات ابن خلكان».

وكان للشيخ رحمه الله تعالى عناية في **الكتب الأصول والمراجع الكبيرة**؛ فهذّبها ويَسَّرها، من ذلك:

١ ـ «تهذيب سيرة ابن هشام».

٢ ـ «تهذيب إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي.

٣ ـ «الألف المختارة من صحيح البخاري».

٤ ـ «فهارس معجم تهذيب اللغة» لأبي منصور الأزهري في مجلد ضخم.

مكتبته:

جمع الأستاذ عبد السلام هارون خلال حياته الحافلة بالإنجازات مكتبة علمية ضخمة وعامرة، وحوت هذه المكتبة تنوعاً نفيساً، وتراثاً إنسانياً بديعاً من الفنون والنوادر، وبعد وفاته رحمه الله قامت مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض بشرائها؛ لتفوز بتعليقات الشيخ وتصحيحاته ونكته ونوادره التي تركها بخطه، سواء على كتبه أو كتب غيره.

وخلاصة القول: إنّ إصدارات الشيخ رَحِمَهُ اللهُ العلمية والأدبية والتاريخية، والتي اعتنى بها بين تأليف وتحقيق وتهذيب وفهرسة، تجاوزت (١١٥) كتاباً، وقد تَوَّج عبد السلام هارون حياته بأن:

١ ـ نال جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي سنة (١٩٨١م).

٢ ـ انتخبه مجلس مجمع اللغة العربية أميناً عاماً له في (١٩٨٤م).

٣ ـ اختاره مجمع اللغة العربية الأردني عضو شرف به.

هذا، وظلَّ الشيخ يعمل في خدمة التراث في صبر وجلد، ينجز بهما الأعمال العلمية المضنية على اختلاف مناحيها وكثرة تشعبها، تمده ـ بعد توفيق الله ـ ثقافة عربية واسعة، وبصر بالتراث، ونفس وثابة، وروح إسلامية عارمة تستهدف إذاعة النصوص الدالة على عظمة التراث العربي، وتكشف عن نواحي الجلال فيه.

وإلى جانب هذا النشاط في عالم التحقيق، كان الأستاذ عبد السلام هارون أستاذاً جامعيّاً متمكِّناً، تعرفه الجامعات العربية أستاذاً محاضراً ومشرفاً ومناقشاً لكثير من الرسائل العلمية التي تزيد عن ٨٠ رسالة للماجستير والدكتوراه.

وليس غريباً ـ بعد هذه السيرة العطرة ـ أن يقول عنه فضيلة الأستاذ أحمد تمام:

«لم يخطّ أحدٌ في التراث العربي سطراً إلّا وللعالم الجليل عبد السلام هارون مِنَّة عليه، ويندُر أن يتعامل أحدٌ مع المصادر العربية دون أن يستعين بمصدر من تحقيقات الشيخ الجليل؛ فقد قدم للمكتبة العربية عيون التراث في صورة بهية وحلّة قشيبة، وزينها بتعليقات وفهارس دقيقة»[(١)].

وهذه الشخصية الفذَّة هي التي شجَّعت الأستاذ هلال ناجي رحمه الله، على أن يمجّد ذكرى الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمة المصنفين في قصيدته الرائعة التي نظم فيها أصول تحقيق النصوص التراثية، فقال رحمه الله:

«لراشر» كان بلا اختلاف ... ريادة للركب في المطاف
وبعده «هارون» في الذي وضع ... وخلفه «مُنَجِّد» بما ابتدع[(٢)]

وفاته:

توفي الأستاذ عبد السلام هارون في (٢٨) شعبان (١٤٠٨هـ)، الموافق (١٦) إبريل (١٩٨٨م)، بعد حياة علمية رائدة، وعطاء سخي، وثروة إنسانيّة نفيسة تركها في خدمة التراث العربي والإسلامي.

---

(١) انظر: موقع إسلام أون لاين عن الأستاذ أحمد تمام.
(٢) انظر: مجلة الوعي الإسلامي، العدد (٥٦١) جمادى الأولى (١٤٣٣هـ)، مارس (٢٠١٢م) (ص١٢).

شاء الله العزيز الحكيم أن تنتهى هذه المسيرة العطرة لرجل ما زال ذكره حيّاً في الحياة العلمية والثقافية والتراثية.

ومن باب الوفاء للعطاء والمعروف الذي قدَّمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها؛ قامت جامعة الكويت بإصدار كتاب عنه سنة (١٤١٠هـ) بعنوان:

«الأستاذ عبد السلام هارون معلِّماً ومؤلِّفاً ومحقِّقاً»

رحم الله شيخ المحققين رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

التـــــراث

لا نجد للتراث مادة معيَّنة في معاجم اللغة كبيرها وصغيرها؛ فليس في اللغة العربية من المواد المبدوءة بالتاء والمختومة بالثاء إلا ثلاث مواد:

١ ـ **الأولى**: مادة: (تفث). ومما ورد فيها ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]. وقضاء التفث: إذهاب الشعث والدرن، وهو ما يفعله المحرمِ إذا أحلّ: كقص الشعر، وتقليم الأظفار.

٢ ـ **الثانية**: مادة: (تلث): وفيها التَّليث بوزن فعيل، وهو ضرب من نجيل السَّباخ.

٣ ـ **الثالثة**: مادة: (توث)، وقد ورد فيها التوث: وهو لغة ضعيفة في التوت؛ كما ذكر بعض اللغويين.

إذن من أين جاءت كلمة (التراث)؟

إنَّها مأخوذة من مادة: (ورث) التي تدور معانيها حول حصول المتأخر على نصيب مادّي أو معنويّ ممن سبقه: من والدٍ أو قريبٍ أو مُوصٍ، أو نحو ذلك. وفي الكتاب العزيز: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

وأجمع اللغويون على أن التراث ما يخلّفه الرجل لورثته، وأن تاءه أصلها الواو: أي: (الوُراث). وله نظائر في كلمات أخرى منها: التُّجاه، أصلها الوُجاه؛ أي: الجهة.

ومنها: التُّخمة: الأزمة الناشئة عن ثقل الطعام. وأصلها (الوُخَمة).

ومنها: التُّهَمة: وهو توهّم الإنسان أن أخاه قد أساء أو تجاوز حدّاً من الحدود، وأصلها (الوهمة).

وكذلك: التكلان، أصلها (الوكلان)؛ أي: الاعتماد على وكيل.

(وَتتْرَى)، أصلها (وَتْرَى) من المواترة.

ومن هذه النظائر أيضاً: التُّقى، أصلها (الوُقى).

وهكذا يبدو قلب الواو المتصدرة لهذه الكلمات تاء؛ لأنها أجلد من الواو وأقوى، ولا تتغير بتغيُّر أحوال ما قبلها كما يقولون.

تاريخ الكلمة

لعل من أقدم النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة ما جاء في القرآن الكريم من سورة الفجر: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ [١٩]: كانوا في جاهليتهم يمنعون توريث النساء وصغار الأولاد، فيأكلون نصيبهم ويقولون: لا يأكل الميراث إلا من يقاتل، ويحمي حوزة القوم، وكانوا يلمّون جميع ما تركه الميت من حلال أو حرام ويسرفون في إنفاقه.

ومما ورد في الشعر القديم قول سعد بن ناشب ـ وهو شاعر إسلامي ـ؛ كان بلال بن أبي بردة قد هُدِم داره؛ لأنه أصاب دماً في قوم:

فإن تَهدموا بالغدر داري فإنَّها تراثُ كريمٍ لا يُبالي العواقبا!

وظلت كلمة (التراث) محدودة الاستعمال تنوب عنها أختها (الميراث) في كثير من الأمر إلى أن أطلّ علينا هذا العصر الحديث، فوجدنا هذه الكلمة تشيع بشيوع البحث عن الماضي: ماضي التاريخ، وماضي الحضارة، والفنّ والآداب، والعلم، والقصص، وكل ما يمتُّ إلى القديم.

المعنى المعاصر

والذي يعنينا في هذا الذي قصدنا له هو التراث الفكري المتمثل في الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة، أو مبتورة، فوصلت إلينا بأشخاصها.

وليست هناك حدود معيّنة لتاريخ أي تراث كان؛ فكل ما خلَّفه مؤلف من إنتاج فكري بعد حياته ـ طالت تلك الحياة أو قصرت ـ يعد تراثاً فكريّاً.

ولقد أصبح شعر البارودي وشوقي وحافظ، وحديث عيسى بن هشام، وآثار المنفلوطي والمازني والعقاد، تراثاً له حرمته التاريخية، وله مقداره الأثري.

التراث العربي

والتراث العربي يتناول كل ما كتب باللغة العربية، وانتزَع من روحها وتيارها قدراً، بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه؛ فإن الإسلام قد جَبَّ هذا التقسيم وقطعه في جميع الشعوب القديمة التي فتحها، وأشاع الإسلام لغة الدين فيها، وهي اللغة العربية التي لوَّنت تلك الشعوب بلون فكري واحد متعدد الأطياف، وهو الفكر الإسلامي، وهو الفكر العربي.

❁ ❁ ❁

تقويم التراث العربي

ولعل من نافلة القول والتزيد فيه أن نسهب في بيان قيمة هذا التراث، فلقد سبقنا العلماء الأوروبيون إلى الاعتراف بهذا الفضل، واستولى عليهم الدهش إزاء ظهورهم على ما صنع أسلافنا في مختلف زوايا العلم والمعرفة؛ فالتراث العربي غني في الكيفية، غني في الكمية أيضاً، ولا تزال آثار هؤلاء الأسلاف ـ في التشريع والعلوم الفلسفية والرياضية والجغرافية والطبية والفنية وغيرها ـ معدودة في قمة الإنتاج الفكري، ولا تزال النظريات الفلسفية والاجتماعية لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلاً وجذراً من جذور علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة.

وأذكر أنني كنت في مجلس ضم طائفة من المشتغلين بالفلسفة، فانبرى أحد الأستاذة ليقول: إن أحدث البحوث الفلسفية الآن أصبح يستخدم الرموز الحرفية في حلِّ مشاكل الفلسفة، وإن مسائل الفلسفة الآن أضحت شبيهة بمسائل الجبر والمعادلات الرياضية! فقلت له: إن أسلافنا العرب قد سبقوا فلاسفتنا المعاصرين في هذا الاتجاه الذي نوَّهتُ به.

وذكرت له أني قمت بنشر رسالة للرئيس ابن سينا عنوانها

(الرسالة النوروزية) تكلم ابن سينا فيها على فلسفة الوجود مستخدماً حروف الهجاء: (أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر) في معادلات رياضية ينتهي بكل منها إلى أحكام فلسفية خاصة. وهذه الرسالة ضمن سلسلة نوادر المخطوطات التي قمت بنشرها سنة (١٩٥٤م). فأخذت الدهشة صاحبي من السبق الفني العجيب لأسلافنا العرب:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع!

وإن في التراث العربي كثيراً من المعجزات الفريدة التي لم تتكرر في عالم التأليف إلى الآن.

فكتاب «مقاييس اللغة» لابن فارس يعد فريداً في بابه، إذ إن ابن فارس استطاع أن يبتدع نظرية لغوية دقيقة تتمثل في إرجاع كل مادة لغوية من مواد المعاجم إلى أصل أو أصلين أو عدة أصول معنوية. وقد يكون في المادة الواحدة مئات من الكلمات، مثل: مادة: (ربع)، وتفسر كل كلمة منها بتفسير خاص يخاله القارئ المطَّلع أشتاتاً مختلفة، ولكن ابن فارس استطاع بحذقه أن يردّها إلى ثلاثة أصول، وهي: الجزء من أربعة أشياء، والإقامة، والإشالة، والرفع. على حين نجد ابن منظور في «لسان العرب» يتناول مفردات هذه المادة ومشتقاتها في خمس عشرة صفحة كبيرة، يُخيَّل للباحث فيها أن هناك مئات من الدلالات لمئات من الألفاظ.

وقد قام ابن فارس بتطبيق تلك الفكرة على جمهور المواد

اللغوية العربية، فاستقام له ذلك. ولم نسمع إلى الآن بمن قام بمثل هذا المجهود التأليفي في أي لغة من لغات العالم كانت، في قديمها وفي الحديث.

كما تعدّ «مقدمة ابن خلدون» لكتابه في التاريخ كنزاً من كنوز التفكير الاجتماعي سيظل أصلاً للفلسفة الاجتماعية، وسيظل مرجعاً للدارسين مهما طالت الأزمان وكرت الدهور.

وكذلك المجهود الفريد الذي قام به الزمخشري في معجمه «أساس البلاغة» الذي استطاع فيه أن يفرد الألفاظ والأساليب المجازية، وينظر إليها بعين مبصرة. ولقد حالفه التوفيق، واستتب له النجاح في جميع خطواته.

ونستطيع أيضاً أن نعد تراث أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في قمة التأليف في المعارف العامة، أو أن نقول: هو الذي فتح الباب لمن جاء من بعده من العرب وغيرهم حتى أمكن المؤلفين في عصورنا الحديثة أن يؤلفوا ما يسمى بدائرة المعارف Encyclopedia.

ويستطيع الأديب العربي أن يكتفي بقراءة كتبه ليحصل على اللبنات القوية التي تشيد له صرحاً فكريّاً وبيانيّاً عالياً، وتمنحه قوة واقتداراً على البيان والنقد والتصرف في فنون القول.

فنون التأليف العربي

ويكفي أن تقلب طرفك في أثناء كتاب «كشف الظنون» لحاجي خليفة، لتقرأ أسماء نحو مائتي علم أو فن، كعلم آداب البحث والمناظرة، والاختلاج، والأسطرلاب، والأكر، والآلات الحربية، والآلات الرصدية، وآلات الساعة، والآلات الظلية، وعلم انبساط المياه، وعلم الأوزان والمقادير، والباه، والبرد ومسافاتها، والبنكامات، والبيزرة، والبيطرة، وتحسين الحروف، وتدبير المدينة، وتدبير المنزل، وترتيب العسكر، وتركيب المداد، والتصوف، وتعبير الرؤيا، والجبر والمقابلة، والجراحة، وجر الأثقال، والجغرافيا، والجفر، والجهاد، والحروف والأسماء، والحكمة، والحيل الساسانية، والرصد، والرمل، والرمي، والرياضة، والريافة، والزايرجة، والسياسة، والسيمياء، والشروط والسجلات، والصيدلة، والطبخ، والطلسمات، والطيرة، والعدد، وعقود الأبنية، والفتاوى، والفراشة، والفلاحة، والفلقطيرات، والقرانات، والقرعة، وقلع الآثار، وقوانين الكتابة، وقَود العساكر والجيوش، والكحالة، وكشف الدك، والكهانة، والكيمياء، ومراكز الأثقال، والمرايا المحرقة، والمساحة، والمعادن، والمعمى، والملاحة،

والملاحم، والموسيقى، والميقات، والنبات، ونزول الغيث، والنيرنجات، والوصايا، والوضع، والهندسة، والهيئة. . . إلى كثير جدّاً مما أغفلت ذكره.

هذه بعض أسماء علومهم، وهي قلّ من كثر كما يقولون، ومن الإطالة غير المقبولة هنا أن نفسر مدلول هذه العناوين؛ فإن حاجي خليفة قد تكفل في كتابه الخالد «كشف الظنون» بتوضيح تلك المدلولات وتقديم دراسات موجزة عنها.

وفي المكتبات العامة في العالم، وهي تناهز ألفاً وخمسمائة على ما أحصاه الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه المسمى «خزائن الكتب العربية في الخافقين».

أقول: في تلك المكتبات البالغة هذا العدد[1] آثار خالدة

---

(١) ذكر أن منها في مصر (١٦) مكتبة، وفي الجزائر (٨)، وفي فلسطين (٦)، ولبنان (٣)، وسوريا والعراق والحجاز واليمن (١٥)، والمغرب الأقصى (١٠)، وتونس (٧)، والولايات المتحدة (٢٨٥)، وألمانيا والنمسا (١٤٥)، والاتحاد السوفيتي (١٢٠)، وبريطانيا (٧٦)، وفرنسا (٦٧)، وإيطاليا (٤٨)، وسويسرا (٢١)، وهولاندة (١٥)، وبلجيكا (١٣)، واليابان (٩)، والدانمرك (٦)، واليونان (٢)، والهند (٣)، وإيران (٣). وفي هذه المكتبات نحو (٢٦٢) مجلداً.

وهذا الإحصاء المكتبي والكتبي إنما يرجع إلى سنة (١٩٤٨م) وهو تاريخ طبع كتابه، ومن البديهي أنه تعرض بعد هذا التاريخ لزيادة كبيرة تحتاج إلى متابعة.

خلود الأهرام، وهي جديرة حقّاً بأن يتعاقب المحققون على تمهيد السبل للانتفاع بها، والاستمداد منها.

إن مؤرخي العلوم يعزون إلى أسلافنا العرب ابتكارات في مجالات الهندسة والطب والحساب والجبر والمقابلة والبصريات، بل في مجال التشريع والاجتماع وفلسفة التاريخ والنقد الأدبي:

ففي الهندسة نجد محمد بن جابر البتاني (٣١٧هـ)، وأبا الوفاء البوزجاني (٣٨٨هـ) يتبنَّيان طرقاً قديمة أو مبتكرة لحساب المثلثات من بين فروع الهندسة؛ حتى إذا جاء نصير الدين الطوسي (٦٧٢هـ) كان أول من جعل من حساب المثلثات علماً خاصّاً منظماً. فإلى العرب يرجع الفضل في وضع هذا العلم المستقل الذي كانوا يسمونه أحياناً «علم الأنساب» لقيامه في معظم الأمر على النسبة بين أضلاع المثلث.

وفي الطب نجد أبا بكر الرازي (٣٢١هـ) صاحب كتاب «الحاوي» و«المنصوري»، وهو أول من استخدم (فتيلة الجرح) التي لا تزال مستعملة إلى الآن، وهو الذي ابتدع صنع الخيوط الجراحية من مصارين الحيوان، وأول من استخدم الرصاص الأبيض في المراهم.

وأعظم أطباء الإسلام الرئيس أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا (٤٢٨هـ) صاحب كتاب «القانون» الذي لا يزال إلى اليوم من أهم مراجع الطب والعلاج، وهو الذي ذكر أن السبيل

الوحيد للشفاء من الأورام الخبيثة (السرطان)، إنما هو الجراحة المبكرة في الأدوار الأولى للمرض وأن الاستئصال يجب أن يكون على نطاق واسع وعمق كبير، مع العناية الشديدة بتعقيم المنطقة الباقية بعد الاستئصال.

كما يذكرون أن ابن النفيس علي بن أبي الحزم القَرْشي[1] (٦٩٨هـ) صاحب كتاب «الموجز»، ـ وهو مختصر قانون ابن سينا ـ كان أول من اكتشف الدورة الجزئية للدم بين القلب والرئتين.

وللعرب مفخرة عريضة في وضع علم الجبر والمقابلة، وينتمي وضع هذا العلم إلى العالم الكبير محمد بن موسى الخوارزمي (٢٣٢هـ)؛ فهو الذي ابتدعه وسمّاه، ووضع مصطلحاته، ولا يزال هذا الاسم العربي مسيطراً على جميع لغات العالم (Algebra, Algebre) كالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وأما علم البصريات فنجد أبا علي الحسن بن الحسن بن الهيثم البصري (٤٣٢هـ) يبتدع نظريات الضوء، ويضع في ذلك كتاب «المناظر»، الذي يعد الدعامة الأولى في بناء هذا العلم، وقد شرح فيه انكسار الضوء، وبيَّن كيف تتم رؤية الأشياء، وهو سبق علمي خطير.

---

(١) أصله من بلدة (قرش) بفتح القاف، بلدة فيما وراء النهر، وقد ولد في دمشق، ثم سكن مصر، وأقام بها إلى أن توفي.

ونجد كذلك سبق العرب في موسوعات الفقه الإسلامية كـ «مبسوط السرخسي» و«مدونة مالك»، و«كتب الفتاوى».

الإيمان بالتراث

كما أن الوطن هو المهد الأول لجسم الإنسان، يحنُّ إليه كلما بعد به المطاف في بلاد الله، ويشعر في قرارة نفسه بحبه وتفديته، والاستهانة ببذل المال والنفس في سبيل الحفاظ عليه، ويدين له أبداً بالولاء والإعزاز مهما أغرته المغريات، وباعدت بينه وبين أرضه ضرورات العيش، كذلك يعد التراث الفكري هو المهد الأول لتفكيره ولنفسه. وأي انفكاك بين المرء ووطنه، أو بين المرء وتراثه، يخلق منه امرءاً تتجاذبه أطراف الضياع وفقدان النفس. وضياع النفس مدعاة إلى التفكك والتخلخل، والشعور بالبؤس والمذلة اللتين لا تطيب معهما الحياة.

وإذا ذهبت في المقابلة بين جيلنا الذي نشأنا فيه، وبين هذا الجيل الذي يعيشه أبناؤنا؛ وجدنا الفرق شاسعاً بين شعورنا بكياننا العزيز الوثيق، وكيان بعض أبنائنا الذين انفصلوا عن المتعة بالتراث العربي متمثلاً في ضروبه المختلفة:

فهناك التراث الديني في كتبه التي كانت ميسرة لنا، وكانت موضع اهتمامنا؛ والتراث الأدبي واللغوي الذي كان لكل منّا قدر وافر من الاطلاع عليه، وتمثُّله حفظاً أو قراءة أو رواية. وكذلك التراث التاريخي الذي كنا نملأ به المجالس مذاكرة ومساجلة، والتراث القصصي متمثلاً في قصص «عنترة بن شداد»،

و«ألف ليلة وليلة»، و«إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس» للإتليدي ونحوها. هذا بالإضافة إلى دواوين فحول الشعر كأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء، والقصائد المعلقات.

ولم يكن في جيلنا من لا يحفظ للحريري أكثر من مقامة، ثم ينظر من بعد ذلك في «كامل المبرد»، و«أمالي القالي»، وفي «العقد الفريد»، و«أغاني أبي الفرج». وكانت الكتب المدرسية حافلة بعيون التراث، نستظهر منها جياد النصوص وحسان الخطب، وكان بعضنا يحفظ ديوان شعر بأكمله، أو يستظهر جمهوره.

كيف نستعيد هذا الإيمان؟

وإني لأعتقد أن هذه النكسة التي يحياها أبناؤنا اليوم هي في سبيل الانقشاع بفضل الجهود المكثفة التي يتضافر عليها العلماء المحققون الغُيَّرِ الذين يتنادون في مختلف أصقاع العالم العربي، ويتكاتفون على إحياء تراثنا العربي بتقديمه إلى ناشئة اليوم وشيوخ الأمس.

إن لنا لماضياً رائعاً، حافلاً بألوان جميلة حقّاً من فنون الأدب وضروبه، وهو ماضٍ جدير بأن نفخر به ونعتز، وأن نجيل النظر فيه، فنظفر بالممتع العجيب!

إنه لم يتح للكثير منّا اليوم أن يتصلوا بهذا الأدب العربي القديم اتصالاً صالحاً، يفتح أعينهم على ما فيه من خير وما فيه من عجب: فهذه الاضطربات السياسية، وهذه الفوضى الفكرية التي ضربت أطنابها في أرجاء الأمة العربية، وباعدت بيننا وبين

موارد الأدب العربي القديم، جعلت أبناءنا ينظرون إلى هذا اللون الثقافي نظرتهم إلى شيء غريب عنهم.

إنني أعني بالأدب العربي القديم، ذلك الإنتاج الخصب الذي يبدأ من عهود الجاهلية، ثم يترامى إلى آفاق القرن الرابع أو الخامس الهجري؛ فإن ذلك العهد الإسلامي يمت بسبب وثيق إلى عهد الجاهلية، ويحذو حذوه في كثير من الأمر، ويستمد أكثر ما يستمد من معينه، وفيه حافظ الأدباء إلى حد ما على سلامة اللغة وسلامة الذوق العربي الذي ينسجم مع هذه اللغة انسجاماً، ويلتئم بها التئاماً.

ولقد نقلت إلينا أمهات الكتب ذلك الأدب في صدق وأمانة، وساقت إلينا روائع كثيرة، ولكنا نغمض أعيننا دونها؛ لأننا نجد فيها الصعوبة، ولا نجد اليسر واللين اللذين يجذباننا إلى قراءة الأدب المعاصر!

إن هذه الصعوبة ترجع إلى أمور شتى:

منها: غرابة هذه اللغة التي تحتاج إلى ترجمان يفتح مغلقها، ويجلو وجهها.

ومنها: ما قد يظهر من إخفاق هذه المؤلفات في طريقة العرض، وعدم مسايرتها للأساليب الحديثة المؤسسة على جانب كبير من مقتضيات علم النفس ومناهج الترغيب.

ومن أسباب ذلك أيضاً تلك الجناية التاريخية التي يجنيها

الناسخون والطابعون، فيشوِّهون معالم هذا التراث، ويزيدونه عسراً فوق عسر.

ومن علل هذه الصعوبة أيضاً بُعد العهد بملابسات تلك الوقائع الأدبية وظروفها وأجوائها. وبدون معرفة هذه الظروف والأجواء قد يخفق القارئ في فهم تلك النصوص، ويقع في لج من الحيرة والارتياب.

ومما حمل النشء أيضاً على هذا الرفض؛ ضعف الدعوة إلى هذا الأدب الرفيع في الوقت الذي ظهرت فيه دعاوى مغرضة متعمدة، تقصد إلى توهين شأنه وتحقيره ورميه بالضعف؛ كما رميت لغته من جانب آخر بعجزها عن مطاوعة ما تقتضيه الحياة المعاصرة. وقام بهذه الدعوة بعض ضعاف النفوس الذين يودون أن لو زالت هذه اللغة، وضاع أدبها، وامّحت ثقافتها في لمحة الطرف أو غمضة العين؛ إذ قالوا: إن الأدب العربي أدب ناقص ينقصه الكثير من مقومات الآداب.

أما صعوبة اللغة فليست ترجع إلى طبيعة اللغة، وإنما ترجع إلى أمرين رئيسيين:

أما أحدهما: فهذه اللغات العامية التي تثير الاضطراب فيمن يقبل على تعلم العربية، فتأخذه إلى هوة من الشك ما يدري: أعربي ذلك اللفظ أم دخيل؟ وما يدري أيضاً أعربي هذا الأسلوب أم أعجمي؟ ثم هو يجد نفسه في عالم غريب من دنيا الألفاظ؛ لأنه لا يتكلم في بيته أو في معهده

أو في ناديه إلا لغة عامية شتان ما بينها وبين فصيح اللغات!

وأما الآخر: فهو هذا الداء العضال، هو المدرسة: فهذه الأداة التي كان يظن بها أن تكون عاملاً على إنهاض اللغة وإقالتها من عثرتها، أصبحت هي حجر العثرة في طريق نهضة اللغة، لا بأساتذتها ومعلميها الذين لا يزالون يرتضخون لَكْنَةً عامية فحسب، بل بقصور مناهجها وارتباك أساليبها في تعليم هذه اللغة؛ لأنا لم نصنع تلك المناهج بأيدينا في بادئ الأمر، بل ساقها إلينا الدخيل في لفافة من السياسة الاستعمارية، ثم كف يده، وظللنا نحن لا نكف عن السير في ذلك التيار الذي دُفعنا إليه دفعاً.

وهذا هو السر في إخفاق كثير من الطلاب الذين اكتفوا بجهد المدرسة الضئيل، فحرموا أنفسهم المتاع الطيب بهذا الأدب، على حين نجد من درسوا بأنفسهم، وكان لهم ميل خاص ومجهود شخصي، قد فازوا بهذه المتعة، ونجحوا نجاحاً ظاهراً؛ لأنهم لم يتقيدوا بالقيد المدرسي، فاتسعت أمامهم آفاق المعرفة واحداً بعد الآخر. والعلم وَلود كما يقولون.

وحين تتخلَّص اللغة العربية من هذه القيود، وتختص اللغة العربية بالعناية الواجبة، حينئذ نمتلك لغتنا امتلاكاً خالصاً، ونشعر باستقلالنا الروحي الثقافي، الذي هو أعلى مقاماً وأعزّ شأناً من سائر مظاهر الاستقلال.

دفاع عن التراث الأدبي الأصيل

إن النظرة الشعوبية التي توجه إلى الأدب القديم، وادعاء أنه أدب استجداء، وأنه أدب سطحي، وأن مراجعة قد أخفقت في عرض ما بها من آثار أدبية، وأنها لا تلتزم نظم التأليف، وأن بها إطالة غير مجدية حين تذكر الإسناد أو تعيد الخبر وتكرره بروايات متعددة؛ إن تلك الادعاءات الباطلة التي قام بها أمثال سلامة موسى وحوارييه لن تصنع شيئاً في هذا الطود الشامخ. وفي الحق إن في النصوص القديمة أدب استجداء، ولا يزال هذا النَّهج ظاهراً أمام أعيننا في الأدب الحديث عربيّاً كان أو غير عربي، ولكن الحكم بالتعميم حكم ظالم، فإننا نجد في الأدب القديم والشعر القديم مواقف نموذجية للكرامة والاستعلاء، بالإضافة إلى المواقف العادلة المتزنة.

وقد هجا الشعراء في الجاهلية عمرو بن هند هجاء مقذعاً لم يعبأوا بملكه وسلطانه: نجد صورة جزئية منه في شعر طرفة بن العبد إذ يقول:

فليت لنا مكان الملك عمروٍ　　　رَغوثاً حول قُبَّتنا تدور[1]

(١) الرغوث: النعجة المرضع.

مـن الـزَّمِـرات أسـبـلَ قـادِمـاهـا وضَــرَّتــهــا مــركَّــنــة دَرور(١)

ونرى عمرو بن كلثوم يستعلي عليه، ويتجاهل سلطانه وسطوته ويخاطبه في شموخ:

تــهــددْنــا وأوعــدنــا رويــداً مـتـى كـنـا لأمـك مـقـتـويـنـا؟
فـإنَّ قـنـاتـنـا يـاعـمـرو أعـيـت عـلـى الأعـداء قـبـلـك أن تـلـيـنـا

ونجد المتنبي يوجه السخرية والهجاء إلى كافور الإخشيدي، وينظر إليه من الأعلى فيقول:

أكلَّما اغتال عبد السَّوء سيدهُ أو خانه فله في مصر تمهيدُ
صار الخصيّ إمامَ الآبقين بها فالحرُّ مستعَبدٌ والعبد معبودُ
نامت نواطيرُ مصرٍ عن ثعالبها فقد بشِمْنَ وما تَفْنَى العناقيدُ
العبد ليس لحّرٍ صالح بأخ لو أنّه في ثياب الحرِّ مولودُ
لا تشتر العبدَ إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويقول:

وتعجبني رجلاك في النعل، إنني رأيتك ذا نعلٍ وإن كنتَ حافيا
وإنَّك لا تدري ألونُك أسودٌ من الجهل، أم قد صار أبيض صافيا؟
ومثلُك يؤتى من بلادٍ بعيدة ليضحكَ ربّاتِ الحداد البواكيا!

بل ألفت كتب خاصة في مثالب الوزراء. وقد صنع أبو حيان كتاب «مثالب الوزيرين» ـ الصاحب بن عباد، وابن

---

(١) الزمرات: القليلات الصوف.

العميد - فلم يدع لهما كما يقولون أديماً صحيحاً. وكتابه هذا مطبوع متداول[١].

وإذا سلمنا بأن شعر المدح قد يحتمل الرياء والنفاق والتذلل، أفليس هناك شعر للفخر، وشعر في الغزل والتشبيب، وشعر في الوصف، وآخر في المراثي والتعازي، وكل أبواب المعاني التي لم يدع الشعراء منها شاردة أو واردة، أليس في ذلك كله آيات في الروعة والسمو وعجيب البيان. وإن بيتاً واحداً من أبيات المتنبي أو أبي العلاء لأعلى كعباً وأسمى شأناً من أمثال هذه الكتب الشعوبية المغرضة!

وأما ادعاء السطحية فباطل كذلك: فإن ما تَعجّ به الآثار الأدبية القديمة من حكم وأمثال سائرة، ومن عمق المعاني ودقة الأفكار ما لا يحوج المدافع إلا أن يمسك بأصابع المدعي ليضعها فوق النصوص العميقة متتالية متوالية:

وما كلُّ ذي لُبٍّ بمؤتيكَ نُصْحَه ... وما كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع
فاستقدر الله خيراً وارضين به ... فبينما العسر إذ دارت مياسير
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
اعمد إلى الحق فيما أنت فاعله ... إن التخلق يأتي دونه الخلق
والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

(١) بتحقيق إبراهيم الكيلاني، طبع دار الفكر بدمشق.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا
أرى بصري قد رابني بعد صحة ... وحسبك داءً أن تصح وتسلما
وإن ضيع الإخوان سراً فإنني ... كتوم لأسرار العشير أمين
ويكون له عندي إذا ما ائتمنته ... مكان بسوداء الفؤاد مكين
فإذا استودعت سراً أحداً ... فقد استودعت بالسر دمك
أبكي الذين أذاقوني مودتهم ... حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
أجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيب
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
قومي هم قتلوا، أميم، أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي
فتضاحكن وقد قلن لها ... حسن في كل عين من تود
وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار
لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى
ستقرب الدار شوقاً وهي تارحة ... من فاته العين لم يستبعد الأثرا

وأما أن مراجعة قد أخفقت في عرض ما بها من آثار أدبية فقول باطل. وسيقول بعضهم: إني لأستفتح كتاباً من كتب الأدب العربي فيقفز في عينى: (حدثنا فلان عن فلان أن فلاناً حدثه بكذا وكذا) وإذا (كذا وكذا) هذه كلمتان أو ثلاث لا تسمن ولا تغني من جوع، فما هذا الضرب من التأليف الذي يعمد إلى الإطالة وإلى إضاعة وقت القارئ؟

فنقول له: إن هذا السند الذي يجعله المؤلف في صدور أخباره هو الوثيقة التي يعتمد عليها في تحقيق ذاك الخبر أو تلك

الرواية. وهذا أمر له وزنه وقيمته عند المحققين، ولا عليك أن تغض الطرف عنه حيناً وألا ترجع إليه إلا إذا كنت من أهل التحقيق.

وسيقول بعضهم: إني لأقرأ في كتاب من تلك، فأراه لا يتحدث في موضوع خاص أو قضية معينة، وإنما ينتقل فيه المؤلف من معنى إلى ثان، ثم يطفر إلى ثالث لا يربطه بالأول ولا بالثاني إلا رباط هين يسير!

فنقول له: إن هذا أسلوب فني يستروح به القارئ، وينتقل به كما تنتقل النحلة في أزهارها ترشف رحيق هذه لتنال من رحيق تلك، وهو أسلوب نفسي تعالج به السآمة والملل، ويجتذب به نشاط القارئ بما يعرض به من مختلف الصور.

ولعل زعيم هذا الأسلوب من التأليف هو صاحبنا الجاحظ، الكاتب المرح، الذي لا يترك القارئ دون أن يزوده ببعض الطرف والنوادر مهما يكن نوع الحديث الذي يسوق فيه القول، وفي ذلك يقول[1].

وإن كنا قد أمللناك بالجد وبالاحتجاجات الصحيحة والمروجة، لتكثر الخواطر، وتشحذ العقول، فإنا سننشطك ببعض البطالات، وبذكر العلل الظريفة، والاحتجاجات الغريبة. فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه، من السرور والضحك والاستطراف، ما لا يبلغه أحر النوادر وأجمع المعاني.

---

(١) «الحيوان» ٣/ ٧.

وأنا أستظرف أمرين استظرافاً شديداً: أحدهما استماع حديث الأعراب، والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً؛ فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب!

❁ ❁ ❁

على أننا كذلك نلقى نماذج أخرى من جياد الكتب محكمة التأليف رائعة في نظامه، نجدها في كتب الثعالبي، ومؤلفات ابن قتيبة كـ«كتاب المعارف»، وكتاب «المعاني الكبير»، و«عيون الأخبار»، ومنها كتاب «نهاية الأرب» للنويري، و«صبح الأعشى» للقلقشندي، ومحاضرات الراغب الأصفهاني.

كما نجد كتب تفسير القرآن الكريم لكل منها منهج خاص يرضي مختلف الأذهان والأذواق:

فمنها: ما يهتم بالرواية والتوثيق مع عذوبة الأسلوب ودقة البيان كـ«تفسير الطبري»، وعلى هذا المنهج يسير ابن كثير في تفسيره مع اهتمامه البالغ بتفسير القرآن بالقرآن، وهو أعظم ما عرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد.

ومنها: ما يجعل وُكده العناية بالتطبيق البلاغي كتفسير الزمخشري المسمى بـ«الكشاف»، وليس هناك ما هو أفسح مجالاً وأوسع أفقاً منه في هذه الزاوية.

ومن التفاسير ما يهتم بالرأي والاجتهاد، ومنها تفسير الفخر الرازي المسمى بـ«مفاتيح الغيب». ونحوه تفسير البيضاوي والنسفي.

ومنها: ما يكون اهتمامه بمسائل العربية والقراءات ظاهراً، كتفسير أبي حيان، المسمى بـ«البحر المحيط». ويهتم النيسابوري بذكر القراءات.

كما أن «تفسير الخازن» مفعم بذكر القصص، ولا سيما الإسرائيليات.

و«تفسير ابن عربي» مترع بالمسائل الصوفية والتأويلات الباطنية.

ومن غرائب كتب التفسير تفسير البقاعي المسمى بـ«المناسبات». وقد حرص فيه على بيان مناسبة كل سورة لما قبلها من السور، ثم توضيح مناسبة كل آية لما قبلها من الآيات، ثم فلسفة مناسبة كل لفظة لما قبلها من الألفاظ. وهو كتاب عجيب حقاً، نتمنى أن يرى النور ويراه النور.

وهكذا نجد في فن واحد من فنون التراث الإسلامي ألواناً مختلفة من التأليف يلتزم كل منها نظاماً معيناً يحتذيه ويسير عليه، وهو الأمر الذي يجعلنا نؤمن بالمنهجية التأليفية المنظمة عند أسلافنا العرب.

وإذا نظرنا إلى المؤلفات في علم الحديث أو في الفقه، أو في الأصول، أو في اللغة أو معاجمها؛ وجدنا كثيراً من الالتزام والنظام اللذين عاب علينا فقدهما بعض من ينظرون إلى الأمور نظرة لا تمتد إلى الغور، ولا تخترق ظواهر الأمور إلى بواطنها.

إن المكتبة العربية مكتبة قوية حقاً، وإن في أدباء العربية وعلمائها لمجموعة صالحة مفرطة العدد من الأدباء والعلماء الذين ارتقوا إلى الصف العالمي، عبقرية وامتيازاً.

وفي المكتبة العربية دواوين لا يحصيها العد، تجد فيها كل نفس ما يرضيها. وفيها مؤلفات طريفة تتناول ما تتناوله اليوم أرقى الآداب المعاصرة.

نماذج من كتب التراث

أمامنا كتاب «البخلاء» للجاحظ، وهو الكتاب الفذ الذي لم تقع العين على مثله في مخلفات الماضين إن لم نقل المعاصرين، وفيه صور البخل والبخلاء أصدق تصوير وأدقه وأبلغه. ولو كانت لغة الجاحظ وأضرابه في متناول فهم معاصرينا اليوم لانصرفوا إليها انصرافاً، وشغفوا بها حباً، ولكنا لا نزال نرقب فجر ذلك اليوم الذي نسترد فيه مجدنا اللغوي ونستعيد حريتنا الثقافية. وإنه لقريب.

انظر إلى قصة الكندي، يقول الجاحظ:

كان الكندي لا يزال يقول للساكن، وربما قال للجار: إن في الدار امرأة بها حمل، والوحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة؛ فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة؛ فإن النفس يردها اليسير. قال: فكان ربما يوافي إلى منزله من قصاع الجيران والسكان ما يكفيه الأيام.

وكان الكندي يقول لعياله: أنتم أحسن حالاً من أرباب

هذه الضياع: إنما لكل بيت منهم لون واحد، وعندكم ألوان!

ويقول في حديث خالد بن يزيد: إنه وقف عليه ذات يوم سائل وهو في مجلس من مجالسهم، فأدخل يده في الكيس ليخرج فلساً، وفلوس البصرة كبار، فغلط بدرهم بغلي[1]، فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس، فقيل له: هذا لا نظنه يحل، وهو بعد قبيح! قال: قبيح عند من؟ إني لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم! ليس هذا من مساكين الدراهم، هذا من مساكين الفلوس، والله ما أعرفه إلا بالفراسة!

وأمامنا أيضاً معجزة التأليف العربي، كتاب «الحيوان» للجاحظ، الذي يعد أول موسوعة عربية تناولت أطراف القول في علوم الدنيا. وقد وشعت هذه الموسوعة بدرر من فكاهة القول وطريف القصص.

هذا عبد الله بن سوار القاضي، قاضي البصرة[2] كان محور طرفة خالدة له، وصورة رائعة دقيقة من صور البيان الملونة، يرسمها الجاحظ ناطقة ساكنة في أسلوبه الخاص:

---

(١) نسبة إلى ضراب يهودي يعرف برأس البغل. وقدرت سعته بسعة الراحة. «حواشي النقود الإسلامية» للمقريزي ص٢٢.

(٢) «الحيوان» ٣/ ٣٤٣.

كان لنا بالبصرة قاض يقال له: عبد الله بن سوار، لم ير الناس حاكماً قط ولا زميتاً ولا ركيناً[1]، ولا وقوراً ولا حليماً، ضبط من نفسه، وملك من حركته؛ مثل الذي ضبط وملك! كان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت، ولا يحل حبوته[2]، ولا يحول رجلاً عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقيه، كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى محله، بل كثيراً ما يكون كذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق، ثم يصلي العشاء الأخيرة وينصرف.

فالحق يقال: لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماءً ولا غيره من الشراب. كذلك كان شأنه في طوال تلك الأيام وفي قصارها، وفي صيفها وفي شتائها! وكان مع ذلك لا يحرك يده، ولا يشير برأسه، وليس له إلا أن يتكلم ثم يوجز، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة.

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه، وفي

---

(١) الزميت: العظيم الوقار. والركين: الرزين.

(٢) الحبوة: أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بثوب، وقد يكون الاحتباء باليدين.

السماطين[1] بين يديه ـ إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث، ثم تحول إلى مؤق عينيه[2]، فرام الصبر في سقوطه على المؤق، وعلى عضه ونفاذ خرطومه، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه، من غير أن يحرك أرنبته[3] أو يغضن وجهه، أو يذب بإصبعه! فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله، وأوجعه وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ـ أطبق جفنه الأعلى فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى الموالاة بين الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك، فكان احتماله أضعف، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى، فحرك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين، وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره، وبلغ مجهوده، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده، ففعل وعيون القوم ترمقه وكأنهم لا يرونه، فتنحى عنه بمقدار ما رد يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجاه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجاه إلى أن تابع بين ذلك، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألج

---

(١) السماط: الصف.

(٢) مؤق العين: طرفها الداخلي. واللحاظ: طرفها الخارجي.

(٣) الأرنبة: طرف الأنف.

من الخنفساء، وأزهى من الغراب! وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله ﷻ أن يعرفه من ضعفه ما كان مستوراً! وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه! ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٢].

ويعرج على ذكر ما يثير العجب في أنماط شتى من الناس، طبقاً لأمزجتهم واختلاف نفوسهم، فيقول[(١)]:

وقال رجل مرة: أخزى الله الفيل فما أقبحه! فقال بكر بن عبد الله: لا تشتم شيئاً جعله الله آية في الجاهلية، وإرهاصاً في النبوة!

وقال سعدان الأعمى النحوي: قلت للأصمعي: أي شيء رأيت أعجب؟ قال: الفيل.

وقيل لابن الجهم: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: الشم.

وقيل لإبراهيم النظام: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: الروح.

وقيل: لأبي شمر: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: النسيان والذكر.

وقيل لسلم الخلال: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: النار.

وقيل لبطليموس: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: بدن الفلك.

---

(١) «الحيوان» ٧/ ٢٠٢.

وقال مرة أخرى: الضياء.

وقيل لأبي عمرو بن قائد الأسواري: أي شيء مما رأيت أعجب؟

قال: الآجال والأرزاق.

وهذا ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء» يذكر قاعدة رائعة شاملة لنقد الشعر العربي، فيقسمه قسمة عادلة واضحة، لا يخرج عنها، ولا يتجاوز حدودها فيقول:

تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب:

١ ـ ضَرْب منه حَسُن لفظه وجاد معناه، كقول القائل في بني أمية:

في كفه خيزران ريحه عبق   من كف أروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويُغْضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم

لم يقل أحد في الهيبة أحسن منه، وكقول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعاً   إن الذي تحذرين قد وقعا

لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن منه، وكقول أبي ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع

٢ ـ وضَرْب حَسُن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلاً كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة   ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا   ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطي الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع، فإذا نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قضينا أيام منى واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء[1]، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأباطح.

وهذا الصنف في الشعر كثير. ونحوه قول المعلوط:

إن الذين غدوا بلبك غادروا   وشلاً بعينك ما يزال معينا[2]

غيَّضْن من عبراتهن وقلن لي   ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟

ونحوه قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله إنساناً

٣ ـ وضرب منه جاد معناه، وقصرت الألفاظ عنه، كقول لبيد:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا إن كان جيد المعنى والسبك، فإنه قليل الماء والرونق، وكقول النابغة للنعمان:

---

(١) الأنضاء: المهزولة، الواحد نضو بالكسر.

(٢) الوشل هنا: الدمع الكثير. والوشل: قليل الدمع وكثيره. والمعين: الظاهر الجاري.

خطاطيف حجن في حبال متينة   تمد بها أيد إليك نوازع

قال أبو محمد[1]: رأيت علماءنا يستجيدون معناه، ولا أرى ألفاظه جياداً ولا مبينة لمعناه؛ لأنه أراد: أنت في قدرتك عليَّ كخطاطيف عقف يمد بها، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف.

وعلى أني أيضاً لست أرى المعنى حسناً.

٤ ـ وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه، كقول الأعشى في امرأة:

وفوها كأقاحِيَّ   غذاه دائم الهطل
كما شيب براحٍ با   رد من عسل النحل

وكقوله:

وإن محلاً وإن مرتحلاً   وإن في السفر ما مضوا مهلا
أستأثر الله بالوفاء وبالحمد   وولى الملامة الرجلا

وهذا شعر منحول لا أعرف فيه شيئاً يستحسن إلا قوله:

يا خير من يركب المطي ولا   يشرب كأساً بكف من بخلا

يريد أن كل شارب يشرب بكفه، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل. وهو معنى لطيف.

---

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، صاحب «الشعر والشعراء».

نماذج من كتب الرحلات

وقد شارك العرب في تأليف كتب الرحلات انطلاقاً وراء كتب الرحلات القديمة، كرحلة هيرودوتس اليوناني.

ومن بين أقدم كتب الرحلات التي قام أصحابها بتصوير الشعوب ونقد أحوالها وشئونها الاجتماعية ـ نجد سابقة عريقة لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي المتوفى سنة (٥٢٨هـ) قبل وفاة ابن جبير سنة (٦١٤هـ)، وعبد اللطيف البغدادي (٦٢٩هـ)، وابن بطوطة (٧٧٩هـ).

يقول في مقدمة رحلته:

كنت إبان عصر الشباب مونق، وغصن الصبا مورق؛ إذ لمتى مسودة ولماء وجهي رونق؛ ممن سامحه الدهر بغفلاته، وتجافى له عن غفوة من غفواته؛ فعاش آمن السرب، سائغ الشرب؛ لا يتفرغ من أدب يرود رياضه، ويرد حياضه؛ إلا إلى طرب يغمر ميدانه، ويسحب ذيوله وأردانه. ثم تلون لي فقلب لي ظهر مجنه، وسقاني وردي دنه، فتدارك ما أغفله، واسترد ما بذله، واضطررت إلى مفارقة الوطن، والخروج عن العطن، فتماسكت إشفاقاً من مفارقة أول أرض مس جلدي ترابها، وشدت علي التمائم بها، وجاءت أمور لا تطاق كبار. فلما لم يمكن القرار، ولم يبق إلا الفرار. قلت: ليس لي إلا أن أرمي بنفسي كل مرمى، وأطرحها كل مطرح.

لأبلغ عذراً أو أنال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وسكنت إلى البيت المشهور:

تلقى بكل بلاد إن حللت بها ... أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان

وإن كان يقول العامة: ليس بين بلد وبلد نسب، فخير البلاد ما حملك. فجعلت أستقري البلاد لأتيمم أوفقها للمقام، وأعونها على مقارعة الأيام، فكانت مصر مما وقع عليه اختياري، وصدقت حسن ظني قبل اختباري. وسرت قاصداً إليها أعتسف المجاهل والتنائف، وأخوض المهالك والمتالف: فطَوْراً أمتطي كل حالكة الإهاب[1]، مسودة الجلباب، ثابتة كصبغة الشباب، قد فسح ميدانها، ووضع براحة الريح عنانها، فجرت جري الطرف الجموح، وفاتت مدى الطرف الطموح. وطَوْراً كل نقب الأباطل[2]، كالهياطل[3]، سبط المشافر جعد الأشعار، أحتذي العقيق، أو الصنو الشقيق، إن علا قلت: ظليم خاضب، وإن هوى قلت: شهاب ثاقب، يصل الذميل بالوخاد، ويلتهم التهائم والنجاد، فكم من جزع وادٍ جزعته، وجلباب ليل ادرعته، وكم بر خرقت مخارمه وفجاجه، وبحر شققت غواربه وأمواجه، وليس لي غير مصر مقصد، ولا وراءها مذهب، ولا دونها للغني متطلب.

---

(١) يعني: السفينة.

(٢) الأبطل: الخصر. والنقب: تنفط الجلد، وإنما نقب لإدمان السير؛ يعني: الفرس.

(٣) جمع هيطل، وهو الذئب. ويشبه الفرس في شدة العدة.

وكم في الأرض من بلد ولكن عليك لشقوتي وقع اختياري

فلما تغمرت ركابي من النيل، واستندرت بظل المقطم. ألقيت عصا التسيار، واستقرت بي النوى، وخفت ظهورهن من الرحال، وأرحتهن من الحل والترحال، وقلت: ضالتي المنشودة، وبغيتي المقصودة، ها هنا ألبث وأقيم، فلا أبرح ولا أريم: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

ويقص لنا أبو الصلت قصة طبيب يعالج مرضاه بالعلاج النفسي، وهو أحدث طرق العلاج وأعلاها في عصرنا الحاضر، فيقول:

ومن طريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للمارستان، يُسْتدعى للمرضى كما يستدعى الأطباء، فيدخل على المريض فيحكي له حكايات مضحكة، وخرافات مسلية، ويخرج له وجوهاً مضحكة. وكان مع ذلك لطيفاً في إضحاكه وبه خبيراً، وعليه قديراً، فإذا انشرح صدر المريض وعادت إليه قوته تركه وانصرف، فإن احتاج إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ، أو يكون منه ما شاء الله!

فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذي لا مضرة فيه ولا غائلة له، بل أمره على العليل هيِّن، ونفعه ظاهر بيِّن، كيف لا وهو ينشط النفس، ويبسط الحرارة الغريزية، ويقوي القوى الطبيعية، ويقوي البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول، مع الاستظهار بحفظ الأصول.

ونجده كذلك يفطن إلى ميل أهل مصر إلى استفتاء المنجمين والركون إلى من يدعون معرفة الغيب، وهو الأمر الذي لا تزال بقايا منه سائدة إلى وقتنا هذا، فيقول:

والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها، وتعويلاً عليها، وشغفاً بها وسكوناً إليها. حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك ألا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تحصر فنونها، ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها، ولا تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها، ولا تعد ضروبها إلا في طوالع يختارونها، ونصب يعتمدونها!

ومن الحكايات العجيبة في فرط استعمالهم لأحكام النجوم وعنايتهم بها، ما شهدت بالصعيد الأعلى: وذلك أن بعض الولاة حبس رجلاً من بعض أهل تلك الناحية كان ينظر في علم النجوم، فشفع إليه فيه من يكرم عليه فشفعه فيه، وأمر بإطلاقه. وكان من الحبس في عذاب واصب، وجهد ناصب، فلما أنحوه وقالوا له: انطلق لشأنك ـ أخرج من كمه إصطرلاباً فنظر فيه، ثم أخذ طالع الوقت فنظر فيه فوجده مذموماً، فسألهم أن يتركوه مكانه إلى أن يتفق وقت يصلح للخروج من السجن! فعادوا إلى الوالي فأخبروه بخبره، فضحك منه وتعجب من جهله وفساد عقله، وأجابه إلى سؤاله، وتركه على حاله، وأطال مدة اعتقاله!

وفي كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة

والحوادث المعاينة بأرض مصر»، المعروف خطأً برحلة عبد اللطيف البغدادي.

وهو عبارة عن فصلين من ثلاثة عشر فصلاً من تاريخه الكبير المسمى «أخبار مصر». وقد انتزع هذين الفصلين بعد اختصارهما وتهذيبهما ليكونا برسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف (٥٢٢ ـ ٦٢٢هـ).

في هذا الكتاب المختصر حديث مسهب في خصائص مصر وآثارها ومقابر قدماء المصريين وتوابيتهم وتماثيلهم المتقنة، وكيف برع المصريون في نحت جميع أجزائها؟ فيقول بعد حديث طويل في تحليل هذا النحت: «وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما في القوى البشرية أن تفعله، وأتم ما في المواد الحجرية أن تقبله»، «ولم يبق إلا صورة اللحم والدم».

وأعجب ما في هذا الكتاب تسجيله لما شاهده بعينه في المجاعة التي حدثت بمصر سنة (٥٩٧هـ).

ويقول في ذلك: «ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد، وأشعر أهلها البلاء، وهرجوا من خوف الجوع، ووقع المرض والموتان، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات، والجيف، والكلاب، والبعر والأرواث، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم؛ فكثيراً ما يعثر عليهم

ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل.

ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه، فأمر بإحراقهما.

وكان جماعة من الفقراء قد أووا إلى الجزيرة، وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس، ففطن لهم وطلب قتلهم، فهربوا. ووجد في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير. وخبرني الثقة أن الذي وجد في بيوتهم أربعمائة جمجمة[١].

وهذا الكتاب جدير بإعادة نشره والتعليق عليه والإفادة منه، وإن كان المستشرق الفرنسي دي ساسي قد عني بنشره متناً وترجمة سنة (١٨١١م)، ومن قبله قام إدوارد بوكوك الإنجليزي (١٦٠٤ ـ ١٦٩١م) بترجمته إلى اللاتينية، ثم نشره توماس هايد متناً وترجمه في أكسفورد (١٧٠٢م).

❁ ❁ ❁

(١) نحو هذه الأخبار ما جاء في «النجوم الزاهرة» في حوادث (٥٩٧هـ): «كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا. وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه، فيذبحه ويأكله. . .».

إحياء التراث

ليس إحياء التراث أمراً حديثاً، بل هو عمل طبيعي قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر، وعلى صور شتى، من نشر، أو تفسير، أو تلخيص، أو نقد أو تعليق. فكم قد رأينا من كتب قديمة خلَّفها أصحابها، فقام النساخون والوراقون بإحيائها وإذاعتها على نطاق واسع:

فالمقريزي في الخطط (٢: ٢٥٣ ـ ٢٥٥) يذكر أنه كان في خزانة العزيز بالله (٣٠) نسخة من كتاب العين، و(١٠٠) نسخة من جمهرة ابن دريد. كما يذكر أنه كان في خزانة الفاطميين (١٢٠٠) نسخة من تاريخ الطبري.

ويروي ابن النديم «الفهرست» (٣٦٩هـ) في ترجمته ليحيى بن عدي المنطقي النصراني أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام. ويروى عنه أنه قال: نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري، وحملتهما إلى ملوك الأطراف. وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى.

ومن طريف ما يروى عن أحد النحاة، وهو يحيى بن محمد الأرزني ما ذكره ياقوت في شأنه: أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب

الفصيح لثعلب، ويبيعه بنصف دينار، ويشتري نبيذاً ولحماً وفاكهة، ولا يبيت حتى ينفق ما معه منه!

هذا جانب من جوانب إحياء التراث قديماً، أما الآخر فيتمثل في شرح ذلك التراث، ونحن نجد أن حماسة أبي تمام المتوفى سنة (٢٣١هـ) تناولها بالشرح أكثر من أديب، فشرحها أبو بكر الصولي، والمرزوقي، وابن جني، والآمدي، والتبريزي، وأبو هلال العسكري، وابن سيده، والشنتمري، وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون، واحداً وعشرين شارحاً. وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيباني المتوفى سنة (٣٣٩هـ).

وكتاب سيبويه المتوفى سنة (١٨٠هـ) شرحه أو قام بخدمته أكثر من (٥٥) عالماً: منهم السيرافي، والرماني، والزمخشري، وابن الحاجب، والشلوبين، وابن الباذش.

ومقامات الحريري أبي محمد القاسم بن علي (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ) تولى شرحها كثيرون، منهم صدر الأفاضل قاسم بن حسين الخوارزمي (٦١٧هـ)، وناصر بن عبد السيد المطرزي (٦١٠هـ)، وأبو البقاء العكبري (٦١٦هـ)، وأحمد بن عبد المؤمن الشريشي (٦١٩هـ)، وله شروح ثلاثة على المقامات: كبير، وأوسط، وصغير.

وكتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) شرحه الزبيدي صاحب «تاج العروس» (١٢٠٥هـ)، وطبع هذا

الشرح بفاس سنة (١٣٠٢هـ) في (١٣) جزءاً، ثم في الميمنية سنة (١٣١١هـ) في (١٠) أجزاء. وقام أخوه أحمد بن محمد الغزالي باختصاره. واختصره كذلك أبو العباس الموصلي (٦٢٢هـ) اختصارين، كما اختصره السيوطي (٩١١هـ). وآخر اختصار له إلى اليوم ما نشره عبد السلام هارون باسم «تهذيب إحياء علوم الدين».

إحياء التراث في العصور الحديثة

أما إحياء التراث في هذه العهود الحديثة فقد لبس ثوباً جديداً يمتاز بالنشاط السريع الذي يتمثل في إنتاج المطبعة الحديثة؛ فهي كانت عاملاً فعالاً في نشر التراث الفكري على نطاق واسع، وعلى صور شتى، ودرجات مختلفة من الصحة والتوثيق، ومراحل متدرجة من الدقة والعناية، حتى وصلت إلى ما يشبه القمة في عصرنا الحاضر.

وإذا تحدثنا عن المطبعة رجع بنا التاريخ إلى سنة ١٤٥٠م التي طبعت فيها التوراة، بعد أن ابتدع جوتنبرج الألماني (المطبعة).

أما الطباعة العربية فكان مهدها الأول في إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر؛ إذ ظهرت أول مطبعة عربية في مدينة فانو بأمر البابا يوليوس الثاني، وافتتحها ليون العاشر سنة (١٥١٤م) ومن أوائل ما طبع فيها سفر الزبور (١٥١٦م). ثم مطبعة البندقية وفيها طبع القرآن الكريم للمرة الأولى، وبعد أن تم طبعه

صودرت نسخه وقضي عليها بدافع تعصبي، ثم طبعت أول ترجمة إيطالية للقرآن سنة (١٥٤٧م).

وفي مطبعة روما (١٥٩٣م) طبع (قانون ابن سينا) في الطب، ومعه علم المنطق، وعلم الطبيعي، وكتاب النجاة له أيضاً، وكان صدور هذا الكتاب بداية عهد جديد في دراسة الطب.

ثم تعددت المطابع العربية في أوروبا، وطبع فيها مئات من الكتب العربية والشرقية؛ أكثرها في لندن، وباريس، وليبزج، وليدن، وغوتنجن، وروما، وفيينا، وبرلين، وبطرسبرج.

وكانت الآستانة أسبق مدن الشرق إلى الطباعة، وتم طبع التوراة العربية فيها؛ ترجمة سعيد الفيومي في سنة (١٥٥١م)، لكن هذه الترجمة العربية طبعت بحروف عبرية، مبالغة في التعصب.

وفي القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة بالحروف العربية في كل من الآستانة وسورية ولبنان، فطبع الإنجيل وطائفة من الكتب المسيحية في سوريا بدءاً من سنة (١٧٠٢م).

أما في تركيا فكان القوم في حال تردد في طبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والفلك التي لم يجرؤ أحد على طبعها إلا بعد صدور فتوى من شيخ الإسلام عبد الله أفندي سنة (١٧١٦م) بجواز ذلك، فيما عدا الكتب الدينية التي استصدرت فتوى أخرى بعدها لإجازة طبعها. وتعددت المطابع في الآستانة، فكان أشهرها مطبعة الجوائب لأحمد فارس الشدياق،

ونشر فيها إلى جانب صحيفة الجوائب طائفة صالحة من الكتب العربية.

وتلتهما في ذلك لبنان. وكان من أقدم مطابعها مطبعة قزحيا، بدأت بالحروف السريانية، ثم انتقلت إلى العربية، وكان اهتمامها بالمطبوعات الدينية، ومطبعة الشوير التي أسسها عبد الله زاخر، وكان معظم منشوراتها من الكتب الدينية كذلك. ثم ظهرت مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس في بيروت سنة (١٧٥٣م) وطبعت كثيراً من كتب الأدب والتاريخ، ثم المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان أنشئت في مالطة سنة (١٨٢٢م) ثم نقلت إلى بيروت سنة (١٨٣٤م) وطبعت كثيراً من الكتب المدرسية وطائفة من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر. ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة (١٨٥٤م) فكان لها فضل عظيم في نشر كثير من أمهات التراث العربي، منها نوادر أبي زيد الأنصاري سنة (١٨٩٤م)، و«تهذيب الألفاظ» للتبريزي سنة (١٨٩٥م). ثم المطبعة السورية لخليل الخوري صاحب حديقة الأخبار أنشأها سنة (١٨٥٧م). ثم مطبعة المعارف للبستاني (بطرس بن بولس) سنة (١٨٦٧م)، وهي التي قامت بنشر دائرة المعارف له ثم لولده سليم. وكذا محيط المحيط، وقطر المحيط.

أما في مصر فإن أقدم مطبعة ظهرت فيها هي مطبعة الحملة الفرنسية التي أحضرها نابليون معه سنة (١٧٩٨م) لطبع

المنشورات السياسية والأوامر باللغة العربية، وكانت تعمل وهي على السفينة في عرض البحر، وحينما اقتحمت هذه الحملة ثغر الإسكندرية قام رجالها بتوزيع المنشورات التي أعدوها في البحر، وأطلق على هذه المطبعة اسم (المطبعة الأهلية). ثم نقلت إلى القاهرة، واستمرت في عملها إلى سنة (١٨٠١م) حيث تم انسحاب الفرنسيين؛ ومن أظهر إنتاجها كتاب في الهجاء باللغات العربية والتركية والفارسية، وكانت حروفها عربية وإفرنجية ويونانية.

ومرت فترة من الزمن زهاء عشرين سنة وليس في مصر طباعة ولا مطبعة، حتى استقر الأمر لمحمد علي، فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية، وسميت بالمطبعة الأهلية أيضاً، وذلك في سنة (١٨٢١م)، ثم نقلت إلى بولاق فعرفت بمطبعة بولاق، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري. وكان هذا قد بدأ دربته الفنية على الطباعة في روما في نحو أربع سنوات لصنع أمهات الحروف وسبكها. وكان محررو مطبعة بولاق من الطلبة الأزهريين الذين دربوا لذلك تدريباً خاصاً استغرق نحو ست سنوات.

ومن ألمع نظار مطبعة بولاق حسين حسني (باشا) الذي بدأ أمره مصححاً وكاتباً بالتركية في الوقائع المصرية سنة (١٨٥١م)، ثم عمل في المطبعة إلى أن ولي نظارتها سنة (١٨٨٠م). وهو أول من أنشأ مصنعاً للورق في مصر، وكان معظمه قبل ذلك يستورد من إيطاليا.

وقد استمرت مطبعة بولاق في عملها أكثر من (٩٠) سنة لم تركد في أثنائها إلا بضع سنوات في الفترة التي انقضت بين عهد محمد علي وإسماعيل، وكان نشاطها ظاهراً في طبع مئات من الكتب العربية في الطب، والرياضيات، والطبيعة، والفنون الحربية، والتاريخ، والأدب، والشعر، والتفسير، والحديث، وغيرها. وهذه المطبعة هي نواة المطبعة التي عرفت منذ عهد قديم باسم المطبعة الأميرية. وظهرت إلى جانبها مطبعتان حكوميتان في طرة، وفي أبي زعبل.

أما المطابع غير الأميرية فلم تظهر إلا بعد مضي نحو أربعين سنة من إنشاء مطبعة بولاق. وأولها المطبعة الأهلية القبطية التي عرفت فيما بعد بمطبعة الوطن، أنشئت سنة (١٨٦٠م) بعد أن تدرب عمالها في مطبعة بولاق بإذن من سعيد باشا.

ومن أقدم المطابع الأهلية كذلك مطبعة وادي النيل (١٨٦٦م) طبعت فيها صحيفة وادي النيل التي أنشأها صاحبها أبو السعود أفندي، ومطبعة جمعية المعارف التي أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر سنة (١٨٦٨م).

ولقد لقيت هذه الجمعية العلمية إقبالاً كبيراً واستجابة سريعة من المثقفين وغيرهم، وكان لأعضائها ميزة في أن يحصلوا على الكتب بثمن أقل مما يطلب من غيرهم. وقد نشرت الجمعية طائفة من الكتب القيمة في اللغة والتاريخ

والأدب، منها «تاج العروس» للزبيدي، وكتاب «ألف باء» للبلوي، ومنها كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير. و«الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي»، وهو من أعجب كتب التاريخ؛ إذ هو شرح لكتاب تاريخي ألفه أبو نصر العتبي ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمود بن سبكتكين (٣٦٠ ـ ٤٢١هـ) بأسلوب أدبي فني، وسماه «اليميني» نسبة إلى يمين الدولة هذا. وقد تتابع عليه شراح كثيرون كان أبرزهم وأشهرهم هذا المؤلف، وهو أحمد بن علي المنيني (١٠٨٩ ـ ١١٧٢هـ) الذي سمى شرحه بـ«الفتح الوهبي».

ومنها «تاريخ ابن الوردي» مذيلاً بالحوادث التي جرت بعد وفاة المؤلف؛ أي: من سنة (٥٧٠هـ) إلى سنة طبع الكتاب (١٢٨٥هـ).

ومن الجمعيات التي قامت على إحياء التراث في ذلك العهد: شركة طبع الكتب العربية، وقد ظهرت بعد تأسيس جمعية المعارف بثلاثين سنة؛ أي: سنة (١٨٩٨م). وقد طبعت طائفة صالحة من كتب الفقه والتاريخ: منها: «الموجز في فقه الشافعي»، و«فتوح البلدان» للبلاذري، ومن الطريف حقاً أن نشهد قيام جمعية خيرية خاصة (من فضلاء المصريين وسراتهم ذوي الهمم العلية) لنشر كتاب معين، هو كتاب «المخصص» لابن سيده، وذلك في سنة (١٩٠٢م) وكان من أعضائها: الشيخ محمد عبده، وحسن عاصم، وعبد الخالق ثروت، ومحمد النجاري،

ووكلوا تصحيح الكتاب إلى الإمام محمد بن محمود التركزي الشنقيطي بمعاونة الشيخ عبد الغني محمود أحد علماء الأزهر.

ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه فكرة قومية قبل أن تكون فكرة علمية، فإن طغيان الثقافة الأوروبية والنفوذ التركي وضغطه كان يأخذ بمخنق العرب في بلادهم، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم في الوقت الذي كان فيه الغرباء من الأوروبيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية، فانطلقوا في هذه السبيل ينشرون ويحيون؛ إذ كانوا يرون أنهم أحق بهذا العمل النبيل وأجدر.

جهود المستشرقين:

إن الجهد العلمي الذي بذله المستشرقون في إحياء التراث العربي جهد لا يستطاع إنكاره؛ فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التي جروا عليها. ولا ريب أن تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربي أصيل، يتجلى في معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ في دقة وأمانة ونظام بارع، ولكن المستشرقين تبنوا إحياء هذا الفن في هذه العصور القريبة، ونبغ من بينهم علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربي في أمانة علمية دقيقة اقتبسوها من أسلافنا، مقرونة بعناية خاصة بالفهارس الفنية، وهذا أيضاً كان شأن جمهور أسلافنا، فكتب الرجال عندنا تنال ترتيباً

فهرسياً ممتازاً مقروناً بالإحالات الذكية؛ كما أن مقابلة المخطوطات ومقارنتها ميزة عربية سباقة عرفها آباؤنا الأولون.

وإذا أحببت أن أنوه بالقمة العليا من نوابغ هؤلاء المستشرقين فلن أستطيع إغفال كل من:

١ ـ وستنفلد الألماني Wustenfeld (١٨٠٨ ـ ١٨٩٩م): الذي ألَّف وحقَّق نحو مائتي كتاب بين صغير وكبير: منها كتاب «سيرة ابن هشام»، و«معجم ما استعجم» للبكري، وقد نشره مكتوباً بخط يده مطبوعاً بمطبعة الحجر (ليتوجراف).

٢ ـ بيفان الهولندي Bevan (١٨٥٩ ـ ١٩٣٤م): ناشر نقائض جرير والفرزدق، مذيلة بالفهارس المبتكرة والتعليقات، ومنها تفسيره وفهرسته للألفاظ التي لم تذكر في المعاجم المتداولة. وهو مما يذكر له بالتقدير.

٣ ـ تشارلس لايل الإنجليزي Charles Lyall (١٨٤٥ ـ ١٩٢٠م): محقق «شرح المفضليات» لابن الأنباري، مع ترجمة شعرية لها باللغة الإنجليزية. ومن عجب أنه استطاع أن ينظم هذه الأساليب والمعاني الجاهلية في ثوب شعري إنجليزي قشيب.

٤ ـ رودلف جاير الألماني المقعد Rudolf Geyer (١٨٦١ ـ ١٩٢٩م): محقق «ديوان الأعشى» الذي أسماه «الصبح المنير في شعر أبي بصير». وتظهر عنايته الفائقة في تخريج هذه الأشعار من (٥٦٩) مرجعاً، مع مقابلات كاملة لرواية النصوص بيتاً بيتاً وكلمة كلمة.

٥ ـ ولـيـم رايـت الإنـجـلـيـزي W. Wright (١٨٣٠ ـ ١٨٨٩م): وهو تلميذ المستشرق الكبير دوزي، وقد تولى نشر «الكامل» للمبرد لأول مرة في حذق وإتقان، وقد نشر الكتاب وهو في سن الرابعة والثلاثين، وذلك قبل أن تظهر الطبعات المصرية بنحو قرن، وتمتاز طبعته بالفهارس الدقيقة الوافية.

٦ ـ هـرتـويـغ درنـبـرغ الـفـرنـسـي Hartwis Derenbours (١٨٤٤ ـ ١٩٠٨م): الذي نشر كتاب سيبويه في سنة (١٨٨١م)؛ أي: قبل أن تظهر طبعة بولاق بعشرين سنة.

٧ ـ غـوسـتـاف يـان الألـمـانـي Gustave Jan (١٨٣٧ ـ ١٩١٧م): الذي ترجم كتاب سيبويه كاملاً إلى اللغة الألمانية، مع إضافات وتعليقات بالعربية مقتبسة من شروح السيرافي والشنتمري، ومن «خزانة الأدب» وغيرها.

وقد ظهرت تلك الترجمة في خمسة مجلدات من سنة (١٨٩٥م) إلى سنة (١٩٠٠م).

وغوستاف يان هذا هو الذي أخرج «شرح المفصل» لابن يعيش، مقابلاً بمخطوطات ليبزج وأكسفورد والآستانة في سنة (١٨٨٢م)، وذلك قبل أن تظهر الطبعة المصرية لمحمد منير الدمشقي بنحو (٥٠) سنة؛ أي: نصف قرن.

جهود عربية مبكرة:

من الجهود العربية المبكرة في إحياء التراث العربي، جهود مطبعة بولاق، ودار الكتب المصرية، والمكتبة الميمنية،

ودار الكتب العربية الكبرى، ومكتبة مصطفى الحلبي، ودار إحياء الكتب العربية، ومكتبة الخانجي، والمكتبة السلفية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، ودار المعارف، وجامعة القاهرة، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي بالقاهرة، والمجمع العلمي العراقي، ومكتبة المثنى ببغداد، والمعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، والمعهد العلمي الفرنسي بدمشق، ودائرة المطبوعات والنشر بالكويت. والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزراة الأوقاف، وإدارة التأليف والترجمة والنشر، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، والمؤسسة العربية الحديثة، ودار الثقافة ببيروت، ودار المعارف للتأليف والترجمة والنشر بالعراق.

وسأخص بعض هذه المؤسسات بالذكر:

جهود مطبعة بولاق:

أما جهود مطبعة بولاق فتبدو واضحة في نشر أمهات كتب التراث أمثال: «صحيح مسلم»، و«صحيح البخاري»، و«خزانة الأدب»، و«الأغاني»، و«لسان العرب»، و«صحاح الجوهري»، و«القاموس المحيط»، و«كتاب سيبويه»، و«المخصص» لابن سيده، و«شرح الحماسة» للتبريزي، و«شرح المقامات» للشريشي، و«قلائد العقيان» للفتح بن خاقان، و«صبح الأعشى»، وكثير غيرها من أمهات الكتب.

ويحفظ لنا التاريخ أسماء شيوخ عظام كانوا يقومون ـ في

أمانة ـ بإخراج تلك الكتب على قدر طاقتهم العلمية ومنهجهم الساذج في الإخراج، منهم: الشيخ نصر الهوريني، والشيخ قطة العدوي، والشيخ محمد الحسيني، والشيخ طه محمود، والشيخ محمد عبد الرسول وغيرهم.

دار الكتب المصرية:

وأما دار الكتب المصرية فإليها يرجع الفضل الأخير في القدوة المثالية للمحققين المعاصرين، ولعل أول نافخ في بوق إحياء التراث العربي على النهج الحديث في مصر هو المغفور له أحمد زكي باشا الذي قام بتحقيق كتابَيْ «أنساب الخيل» لابن الكلبي، و«الأصنام» لابن الكلبي أيضاً. وقد طبعا في المطبعة الأميرية سنة (١٩١٤م) باسم لجنة إحياء الآداب العربية التي عرفت فيما بعد باسم القسم الأدبي. ولعل هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً ـ من أوائل الكتب التي كتب في صدورها كلمة (بتحقيق)؛ كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحداث المناهج العلمية للتحقيق مع استعمال المكملات الحديثة: من تقديم النص إلى القراء، ومن إلحاق الفهارس التحليلية. ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة في المطبوعات العربية، وألف في ذلك كتاباً سماه «الترقيم في اللغة العربية» طبع في بولاق في زمن مبكر جداً هو سنة (١٩١٣م) وإن كان يؤخذ عليه أنه كان يبالغ في استعمال تلك العلامات، ولا سيما في الشعر

الذي كان يختتم كل بيت مستقل فيه بنقطة يضعها في نهايته.

ومن أوائل مطبوعات دار الكتب «صبح الأعشى» للقلقشندي في (١٤) مجلداً سنة (١٩٢٠م) بالمطبعة الأميرية باسم دار الكتب. وتعد هذه الطبعة هي الطبعة الثانية؛ إذ طبع قبل ذلك في مطبعة بولاق سنة (١٩٠٥م).

ثم «نهاية الأرب» الذي بدأت طبعه محققاً سنة (١٩٢٣م) بمطبعتها التي أنشأتها.

وكانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنيها لطبع كتاب «الأغاني» لأبي الفرج بإشراف القسم الأدبي الذي كان يرأسه المغفور له أحمد زكي العدوي، بناء على اقتراح السيد علي راتب الذي تكفل بنفقات طبعه، وصدر الجزء الأول منه في سنة (١٩٢٧م) وحظي بعناية كاملة في إعداد الأصول وصنع الفهارس التحليلية في نهاية كل جزء من أجزائه.

واستمرت دار الكتب في أداء مهمتها تنشر موسوعات التراث: ومنها «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي، و«تفسير القرطبي».

ثم ضعفت العناية بهذا القسم إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسي قنديل إدارة دار الكتب، فقام بمجهود ضخم جداً لمسته بنفسي؛ إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء، فدبت الحركة فيه، وحاول أن يخلص كتاب «الأغاني» من ورطته التاريخية، فعهد إلى بعض العلماء بإتمام ما بقي من أجزائه، ولكن الظروف

لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة، وكاد القسم الأدبي في عهده يرتقي القمة في نشر موسوعات التراث، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب في أوروبا أن تضطلع بنشر التراث، وكأننا في جميع خطواتنا إنما نترسم أوروبا في حقها وفي باطلها!

وفي أسف بالغ ودع المثقفون هذا القسم الأدبي الذي قضي على نشاطه بعد عهد أمين مرسي قنديل، أطال الله في حياته.

ويعد إلغاء هذا القسم جريمة لا تغتفر في حق إحياء التراث العربي، ويجب كل الوجوب أن يبعث ثانياً ليؤدي رسالته التي لا يستطيع أداءها غيره نظراً إلى وفرة المراجع المخطوطة والمطبوعة، وإمكان تجنيد طائفة من العلماء، وإعداد جيل يتلقى فن التحقيق بوجه عملي في رحاب دار الكتب.

جمعية المستشرقين الألمانية:

ويرجع تاريخها الأول إلى سنة (١٨٤٥م) حيث أسست في ألمانيا في مدينة هالة، ثم أنشأت فروعاً لها في الشرق، أهمها فرع الآستانة (١٩١٨م) تولى الإشراف عليه وتأسيس مكتبته المستشرق هلموت ريتر، وقام مع غيره بنشر طائفة من كتب التراث الهامة: منها «مقالات الإسلاميين» للأشعري، و«الوافي بالوفيات» للصفدي بتحقيق ريتر ثم ديدرنج، و«المحتسب» لابن جني بتحقيق براجستراسر.

ثم فرع القاهرة الذي سُمِّيَ بمعهد الآثار، وكان يديره رويمر الذي حقق الجزء التاسع من «كنز الدرر وجامع الغرر» للداودي.

ثم معهد الدراسات الشرقية في بيروت سنة (١٩٦٠م). ومن جهوده إعادة نشر الأجزاء الأولى من «الوافي بالوفيات» للصفدي، و«طبقات المعتزلة» بتحقيق السيدة فليتسردي فالد من معهد إستانبول، وكتاب «النحاة» للمرزباني بتحقيق سلايم من جامعة فرانكفورت.

مكتبة الخانجي:

وممن لهم اليد الطولى في إذاعة التراث العربي السيد محمد أمين الخانجي، وفيه يقول أحد أدبائنا الأعلام(١): «وقل أن تجد عالماً أو أديباً في زمنه لم يكن لهذا الرجل النحيف الضئيل فضل عليه. يذكره الذاكر محسناً في ذكره، وينساه الناسي مسيئاً في إساءته، ذلك هو أمين الخانجي الذي أحب الكتاب العربي كأنه تراث أبيه وأمه».

وقد رأيت هذا الرجل في صباي، وعرفت فيه الإخلاص للعلم وحده؛ إذ لم يكن المال عنده إلا في المرتبة الثانية، كما لمست فيه الإخلاص في نشر التراث العربي لا يكاد يعترف بغيره.

---

(١) الأستاذ محمود شاكر في مقدمة «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام.

وقد قدم إلى قارئ العربية مجموعة ضخمة من كتب التراث، يكفي أن نذكر منها: «معجم البلدان» لياقوت مع ذيله «منجم العمران»، وكذا «حلية الأولياء» لأبي نعيم، و«بدائع الصنائع». و«الإصابة» لابن حجر، و«تاريخ بغداد»، و«العقد الفريد»، و«اللزوميات» لأبي العلاء، و«جواهر الألفاظ» لقدامة بن جعفر، و«تيسير الوصول إلى جامع الأصول» لابن أبي الديبع الشيباني بتحقيق الشيخ محمد هارون.

ومن المعروف عنه أنه رحل إلى العراق وغيرها من البلدان العربية، وعاد من رحلته سنة (١٩٢٥م) جامعاً لنوادر المخطوطات التي لا يقدرها الثمن، وكان له ذوق مبكر في منهج نشر الكتب وترقيمها، واختيار الصالح منها للنشر.

وبعد وفاته في سنة (١٩٢٨م) قام مقامه ولده محمد نجيب الخانجي وورث عنه الرغبة الملحة في إحياء التراث عن صدق لمسته فيه من طول صحبتي له، ومن منشوراته مما حققه كاتب هذه السطور: «البيان والتبيين» للجاحظ، و«الاشتقاق» لابن دريد، و«رسائل الجاحظ»، و«نوادر المخطوطات» في مجلدين، وهي خمسة وعشرون كتاباً ورسالة. ومما حققه غيري: «صون المنطق»، و«طبقات الصوفية» للسلمي، كما أسهم في نشر الصلة، وتكملة الصلة، وصلة الصلة وغيرها.

المكتبة السلفية:

أنشأها الأستاذ محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

سنة (١٩٢٠م)، ثم استقل بها محب الدين الخطيب، ونشر كثيراً من كتب السلف: منها «أدب الكاتب» لابن قتيبة سنة (١٩٢٧م) وقد شاركته في إخراجه، وتتلمذت عليه في ذلك الوقت حينما كنت طالباً في تجهيزية دار العلوم، فهو كان أستاذي الأول في ذلك.

ومما نشره لأول مرة كتاب «الميسر والقداح» لابن قتيبة، سنة (١٣٤٢هـ)، وصنع له فهارس فنية في ذلك الوقت المبكر.

ونشر كذلك كتاب «الملاحن» لابن دريد، والثلث الأول من كتاب «خزانة الأدب». وظهر هذا الثلث في أربعة أجزاء بتحقيقي وإضافة تعليقات لأحمد تيمور باشا وعبد العزيز الميمني الراجكوتي، وكنت لا أزال إذ ذاك طالباً في دار العلوم.

لجنة التأليف والترجمة والنشر:

وكانت نواتها طائفة من طلبة مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق، يقول فيهم الدكتور أحمد أمين (في كتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر في عشرين عاماً): طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامي، ويطيلون التفكير في وسائل إصلاحه والنهوض به، ألَّف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله، والإيمان بوجوب العمل على تنبيهه، والأخذ بيده ورفع مستواه.

وكان منهم: أمين مرسي قنديل، وعبد الحميد العبادي، ومحمد بدران، ومحمد صبري أبو علم، وتولى رياستها الأستاذ

أحمد أمين، فظهر نشاطها بارزاً في إحياء التراث، ونشرت «السلوك» للمقريزي بتحقيق الدكتور زيادة سنة (١٩٣٤م)، ثم «المختار من شعر بشار» للخالدين، وغيره من نفائس التراث؛ كـ«العقد الفريد»، و«معجم ما استعجم» للبكري بتحقيق مصطفى السقا، و«شرح الحماسة» للمرزوقي بتحقيق عبد السلام هارون.

جامعة القاهرة:

ومن أقدم منشوراتها «الذخيرة» في علم الطب لثابت بن قرة، تحقيق جورجي صبحي سنة (١٩٢٨م)، و«منتخب جامع المفردات» للغافقي، تحقيق ماكس ماير هوف، وجورجي صبحي (١٩٣٢م)، ونقد النثر لقدامة بن جعفر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي سنة (١٩٣٣م)، و«رسائل فلسفية» للرازي تحقيق بول كراوس سنة (١٩٣٨م)، وبعض أجزاء من «الذخيرة» لابن بسام، تحقيق عبده عزام، وعبد العزيز الأهواني، وخليل عساكر، وعبد القادر القط سنة (١٩٣٩ ـ ١٠٤٥م)، وكتاب «الأصل» للإمام محمد بتحقيق شفيق شحاته سنة (١٩٥٤م)، و«السير الكبير» له تحقيق محمد أبو زهرة ومصطفى زيد سنة (١٩٥٨م).

جهود الكردي، والساسي، ومحمد منير والقدسي:

أما الكردي: فهو فرج الله زكي الكردي، وقد أنشأ مطبعة سماها مطبعة كردستان العلمية، بدأت نشاطها نحو سنة (١٩١١م)، ونشر فيها طائفة من كتب التراث على منهج علمي مقارب منها: كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة.

وأما الساسي: فهو محمد ساسي المغربي، وكان تاجراً بالفحامين، وقد تولى الإنفاق على طبع موسوعات هامة، منها: كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الذي أظهره مذيلاً بالفهارس ومكملاً بالجزء الحادي والعشرين، ولا تزال طبعته هي الطبعة الأكثر تداولاً.

ومحمد منير الدمشقي: كان له فضل لا ينكر في نشر موسوعات التراث: منها «عمدة القارئ شرح صحيح البخاري» للعينى، و«شرح المفصل» لابن يعيش، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير وغير ذلك.

ومن الناشرين المعاصرين المكافحين: رجل لا يزال يوالي نشاطه في إحياء التراث، هو **حسام الدين القدسي** ناشر «تاريخ الإسلام» للذهبي، ولو وجد عوناً من أولي الأمر لأتم هذه المهمة الجليلة التي بدأها منذ عهد قديم، ولكن الرجل مغمور مع أنه جدير بأن يلقى من التشجيع ما يمكِّنه من أداء رسالته. وقد حدثني أنه ينسخ الكتاب بنفسه، ثم يجمع حروفه بيده، ثم يصححه، ثم يدفع به إلى المطبعة، ويكفي أن نذكر من جهوده نشر «شذرات الذهب» لابن العماد، و«الضوء اللامع» للسخاوي، و«مجمع الزوائد» للهيثمي، و«ديوان المعاني» للعسكري، و«اللباب في تحرير الأنساب»، و«ذيول تذكرة الحفاظ».

دار المعارف:

وقد بدأت نشاطها في إحياء التراث العربي سنة (١٩٤٢م) حين فكرت أنا وأخي العلامة المغفور له الشيخ أحمد شاكر في

نشر مجموعات من عيون الشعر سميناها «ديوان العرب». وبدأنا في نشر «المفضليات»، ثم «الأصمعيات».

ثم اقترحنا على الدار أن تخصص نشراً منظماً لعيون التراث العربي، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح وقامت بتنظيم تنفيذه. وأذكر أن الدار قد أعلنت في ذلك الوقت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع، ففاز به عنوان «ذخائر العرب» يشترك في تحقيقها علماء الشرق والغرب، وكان باكورة هذه المجموعة كتاب «مجالس ثعلب» في مجلدين، بتحقيق عبد السلام هارون، و«إصلاح المنطق لابن السكيت» بتحقيقه مع الشيخ أحمد شاكر، والطبعة الأولى من «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم، تحقيق أ. لفي بروفنسال.

وتوالى بعد ذلك نشر طائفة كبيرة من تلك الذخائر بلغت الآن (٥٤) كتاباً، منها: ما هو في أكثر من عشرة مجلدات ومنها: ما أعيد طبعه أكثر من خمس سنوات.

ولا تزال تلك المجموعة في تزايد ونجاح مطرد، نرجو له المضي قدماً في نشاطه واتساعه.

* * *

إن الحديث عن التراث وإحيائه حديث طويل، ولكن ما قصد منها بهذا الحديث أولاً وأخيراً هو استحثاث العزائم لمواصلة السير في هذا الطريق النبيل وفاءً لماضينا، ودعماً لمستقبلنا الثقافي المرتقب.

الفهرس

قائمة إصدارات

الوعي الإسلامي

- القدس في القلب والذاكرة.
- حقوق الإنسان في الإسلام.
- النقد الذاتي.. رؤية نقدية إسلامية لواقع الصحوة الإسلامية.
- الحوار مع الآخر.. المنطلقات والضوابط.
- المجموعة القصصية الأولى للأطفال.
- المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح.
- الحج.. ولادة جديدة.
- الفنون الإسلامية.. تنوُّع حضاري فريد.
- لا إنكار في مسائل الاجتهاد.
- المجموعة الشعرية الأولى للأطفال.
- التجديد في التفسير.. نظرة في المفهوم والضوابط.
- مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي.
- مقالات الشيخ عبد العزيز بن باز في مجلة الوعي الإسلامي.
- رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام.
- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام الخضر حسين.
- علماء وأعلام كتبوا في الوعي الإسلامي.
- براعم الإيمان.. نموذج رائد لصحافة الأطفال الإسلامية.
- الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.
- الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام.
- الحوالة.
- التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس.
- الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي.
- الاجتهاد بالرأي في عصر الخلافة الراشدة.
- التوفيق والسداد في مسألة التصويب والتخطئة في الاجتهاد.
- فقه المريض في الصيام.
- القسمة.
- أصول الفقه عند الصحابة ـ معالم في المنهج.
- السنن المتنوعة الواردة في موضع واحد في أحاديث العبادات.
- لطائف الأدب في استهلال الخطب.
- نظرات في أصول البيوع الممنوعة.
- الإعلاء الإسلامي للعقل البشري (دراسة في الفلسفات والتيارات الإلحادية المعاصرة).
- ديوان شعراء مجلة الوعي الإسلامي.
- ديوان خطب ابن نباتة.
- الإظهار في مقام الإضمار.
- مسألة تكرار النزول في القرآن الكريم.

- ❖ الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي، وجهوده في كتابه «تهذيب الكمال».
- ❖ في رحاب آل البيت النبوي.
- ❖ الصعقة الغضبيّة في الردّ على منكري العربية.
- ❖ منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب.
- ❖ معجم القواعد والضوابط الفقهية.
- ❖ كيف تغدو فصيحاً.
- ❖ موائد الحيس في فوائد امرئ القيس.
- ❖ اتحاف البريّة فيما جدّ من المسائل الفقهية.
- ❖ تبصرة القاصد على منظومة القواعد.
- ❖ حقوق المطلقة في الشريعة الإسلامية.
- ❖ اللغة العربية الفصحى، نظرات في قوانين تطورها، وبلى المهجور من ألفاظها.
- ❖ المذهب عند الحنفية ـ المالكية ـ الشافعية ـ الحنابلة.
- ❖ منظومات في أصول الفقه.
- ❖ أجواء رمضانية.
- ❖ المنهج التعليلي بالقواعد الفقهية عند الشافعية.
- ❖ نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده.
- ❖ دراسات وأبحاث علمية نشرت في مجلة الوعي الإسلامي.
- ❖ ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه.
- ❖ التقصّي لما في الموطأ من حديث النبيّ.
- ❖ المجموعة القصصية الثانية للأطفال.
- ❖ كرّاسة لوّن لبراعم الإيمان.
- ❖ موسوعة رمضان.
- ❖ جهد المقِلّ.
- ❖ العذاق الحواني على نظم رسالة القيرواني.
- ❖ قواعد الإملاء.
- ❖ العربية والتراث.
- ❖ النسمات النّدية من الشمائل المحمّدية.
- ❖ اهتمامات تربويّة.
- ❖ أثر الاحتساب في مكافحة الإرهاب.
- ❖ القرائن وأثرها في علم الحديث.
- ❖ جهود علماء الحديث في توثيق النصوص وضبطها.
- ❖ سيرة حميدة ومنهج مبارك (الدكتور محمد سليمان الأشقر).
- ❖ أبحاث مؤتمر الصحافة الإسلامية الأول.
- ❖ نظام الوقف والاستدلال عليه.
- ❖ من أمالي العلّامة أبي فهر محمود محمد شاكر على كتاب الأصمعيات للأصمعي.
- ❖ من أمالي العلّامة أبي فهر محمود محمد شاكر على كتاب الكامل للمبرد.
- ❖ الترجيح بين الأقيسة المتعارضة.
- ❖ التلفيق وموقف الأصوليين منه.
- ❖ التربية بين الدين وعلم النفس.
- ❖ مختصر السيرة النبوية.
- ❖ معجم الخطاب القرآني في الدعاء.
- ❖ المسائل الطبية المعاصرة في باب الطهارة.
- ❖ المسائل الفقهية المستجدة في النكاح.
- ❖ مقالات ودراسات إسلامية، أدبية، فكرية.
- ❖ دليل قواعد الإملاء ومهاراتها.
- ❖ علم المخطوط العربي (بحوث ودراسات).
- ❖ التراث العربي.